كأنه الموت

رقم الإيداع لدى
دائرة المكتبة الوطنية
2018/4/1755

813.9
العدوان، نايل خالد
كأنه الموت – نايل خالد العدوان – عمان: دار فضاءات، 2018
الواصفات: /القصص العربية//العصر الحديث/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9923-716-17-5





الطبعة الأولى: 2018

كأنه الموت – نايل خالد العدوان – الأردن
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website:http://www.darfadaat4publishing.com

تصميم الغلاف: فضاءات للنشر والتوزيع
لوحة الغلاف: نائل العدوان
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

نائل العدوان

كأنه الموت

رواية



كأنّ الذي يقبضُ الروحَ في كفّه حينَ موتِها؛

هُوَ الذي يلمسُها عِند الفِراقِ بأطرافِ أصَابعه

مصطفى صادق الرافعي

الإهداء

إلى القلوب النابضة بالمحبة، التي لا تموت..

الدقيقة الخامسة عشرة

تعتريني قشعريرة، فتدمع عيناي ويغيب المُبتغى وينطفئ البريق، تتوالد الصور أمامي بتسارع لم أعهده من قبل، تتشظّى مُحدثة سَيلًا باذخًا من الذكريات، التوقيت والأماكن والشخوص، كلّها تبدو واضحة من غير تأخير أو تقديم.

ها هي تلك التي عشت طوال عمري أعاني من قصورها تنسلخ عن نفسها وتصبح ذاكرة مُتقدة، يمرّ شريط الذكريات من أمامي كفيلم مصوّر، أخرج من جسدي، تبتعد روحي بتؤدة، ينبت الشخوص كما قُدّر لهم الظهور أول مرة، تظهر الأماكن واضحة بكافة تفاصيلها، خمس عشرة دقيقة نحو الموت، كل دقيقة لها وزنها، ووقع خاص يوازي سنوات بأكملها.

الأسرّة بيضاء، والسقف أبيض، ويلبس الجميع ملابسَ بيضاء؛ الأطباء والممرضات وحتى عمّال النظافة، ويحيط بك شاش أبيض، وعقاقيرُ ذات روائح نفّاذة لونها أبيض، سُحبٌ من الكلام بيضاء، والهواءُ مثخنٌ بذكريات من الماضي لكنها وحدها التي تتشح بالسواد.

الموتُ حقيقةٌ لم يُحسن التعبير عنها، خفيّة إلا على الميت نفسه، تنفتح كوّةٌ في السماء، ثقب أبيض يشع ضوءًا باهرًا، يخلق كونا من

الكواكب الملونة، تسبح في أفلاك راقصة، عندها تغدو كلّ الأشياء فوق الأرض متشابهة، تَسكُنُ الأنفاس وينكشف الغطاء عن بصري ليصير حديدًا، تتفجّر بعدها الذاكرة كبركان هائج، ثم تكتنز العيون بسحر وتُشرق عدة شموس في آن واحد.

أصوات عديدة تمخر عباب رأسي، صوتُ أمي أقربهم لذاكرتي، صوتٌ يقلب موازين عقلي وهي توقظني صباحًا: عادل! قم لقد تأخرت عن الصلاة، يختلط صوتها بصوت الأذان، يلثغ المؤذن بحرف الراء فتصبح غينًا، المؤذن الذي يحبُ البكاء عند صلاة الفجر يجتهد بتجويد القرآن، يعلو صوته في أول الأذان لكنه يخفضه في النهاية.

ثمة أيضًا صوت زمجرة مخيفة لحيوان لا تظهر ملامحه، رعدٌ يهزّ أوصالي فأستفرغ لكنني لا أستيقظ من رقدتي، هدوء غريب يصيبني بعد ذلك، تقفز الذكريات في رأسي كحشرات صيفية، تتمايز لتكوّن الأحداث بتراتبية عجيبة، كيف قُدّر لي أن أفرزها كلاً على حدة، من أوجد هذا الصفاء الذهني الذي يجعلني أشعر بالهدوء والسكينة؟

بين الهدوء الذي يعتري جريان الدم في رأسي وزخم الذكريات حاجزٌ هائل، تنداح ذكرياتي في الفضاء وفقاً لرموزها، تطير ثمَّ تحطُّ في غرفةٍ صغيرة، تتزاحم أمام باب ضيق يفتح بتلقائية، الذكريات كما أراها كائنات تمشي وتتحدّث وتسخر من الحاضر، تصطف منتظرة دورها في الظهور، بعضها راضخ والبعض الآخر فظّ، تتسلّل ثم

تصعد خشبة المسرح، تُعيد المشاهد، الأبطال يتراقصون، كل يعرف دوره، وعندما ينتهي من العرض يأتي غيره وتستمر الدائرة بالدوران.

دائرة تبدو لوهلة بأنها مرسومة، لكنها تُحسّ وتُسمع وتَتشرّب في سريرة الأرواح التي نَشرت طاقتها في الفضاء، تنكمش فجأة لتبدو نقطة ثم تتسع لتغطي مدار الكواكب السابحة، تتعانق مُتسامية بشفافية لا يمكن رصدها.

تتسع الدائرة وتفيض الأرواح من فوق قطرها باتجاه السماء، حيث الأبدية الساحقة في التغول، تتضاءل بعدها الهوينا، ترتعش الأرواح ويرجع البصر والسمع لها، فضاء ساحق يمتد من أمامي، يحاط بنجوم ترصعه كتاج عروس في يوم زفافها، أقمار تَسيح في جادة طريق الشموس، ترتعش من فرط الغبار فينكشف أديمها وتتناثر في الفضاء السحيق.

زفير الممرضة فوق رأسي يشعرني بوهن وقلة حيلة، تختلط رائحة عطرها بروائح المحاليل الطبية التي اتصلت بأوردة يديّ، كم أودُّ أن أقول لها إنّه عطر يكتم الأنفاس ويدعو للتقيؤ، ينتفض عقلي من رقدته فيدركني غمام حول العينين، التحكم بأوصالي بات مستحيلًا، شللٌ يَمخرُ عباب جسدي ويُحيلني إلى فراشة ينحسر عمرها داخل شرنقة.

هل تدرك الممرضة أني أراها جيدًا؟ هل تعرف بأني أستطيع سماعها ومعرفة قصص جميع من دخلوا الغرفة؟ وروائح أجسادهم، ونظرات

عيونهم وتمييز محبتهم من كرههم؟ حتما لا، فهي تتعامل معي كأي قطعة أثاث في الغرفة، قطعة معطوبة فقدت صلاحيتها وينبغي التخلص منها بأسرع وقت.

ينتشر الضوء في الغرفة عند الصباح، يتسايل بإغراء فوق الجدران فيشعرني بالنعاس، لكنني لا أنام، عيوني تحجرت في انقباض واحد، أتسلّى بانسكاب الضوء فيهما، الضوء هو الشيء الوحيد الذي يبقيني سعيدًا هذه الأيام، تتكدس في حدبته عدة ألوان، أختار منها الأجمل، الأخضر دائمًا يطغى على باقي الألوان التي أستطيع مزجها ورؤيتها على حقيقتها، أرسم غابة زاخرة بالورود، ثم أتذكر الأزرق فأرسم سماءً تغطيني وعصافيرَ تشدو وغيمة بيضاء.

تطفئ الممرضة الضوء وتغادر، بهذه البساطة تحرق لوحتي التي رسمت، كم أكره هذه الممرضة، تختفي ألواني، تتكدّر سمائي الزرقاء، تتلبد بغيوم سوداء، يهدر البحر بأمواج متلاطمة، تطير عصافيري فزعة، أحاول لملمة فلول الضوء، أضمّه إلى صدري، أحنو عليه كطفل، يتفسّخ الضوء ويغادرني هاربًا إلى ثقب أسود مستور.

لم يكن الموت شعورًا مارقًا بل حقيقة أعيشها في هذه اللحظة، نعم، تمامًا الآن وأنا أروي لكم قصتي هذه وأرى نزف عمري يرشح غير عابئ بدهشتي وبأنني سأنام بين الموتى الذين دفنت العديد منهم بيدي هاتين، أصدقاء وأقارب ومعارف وجيران، كلهم غابوا ولم يعد أحد منهم بعد ذلك، هم غابوا فقط، بذات المصير وإن اختلفت الظروف.

لو قُدّر لأحدهم الرجوع من الموت، وإخبارنا عمّا شاهد، لاستطعنا تقييم الموقف، لربما استعجلنا موتنا في سبيل الوصول لحياة أجمل، لربما اخترنا الراحة الأبديّة كسبيل لتجديد حياة مللْنا تَكرار أيامها وساعاتها بل ولحظاتها، هذا هو الوقت الذي يحكم الحياة ويُحرّك شخوصها.

تصل الممرضة صباحًا مع الطبيب، يتبادلان نظراتٍ فاحشة ويَلمس يدها وجسدها قبل أن يتفقد عينيّ، يُسلّط ضوءًا باهرًا على حدقة العين، ويُحرك يده ثم يقول:

- لا استجابة بعد! هل أصدر أي حركة ما بعد العملية؟

- جسده لا ينبض بأي حياة، وَحده القلب الذي ينبض طبيعيًا.

تقول الممرضة، ثم تُعدِّل قِناع الأوكسجين من فوق أنفي دون أن تنظر إلى عينيَّ المسلطتين نحو الفراغ.

- كما ترى، إنه لا يصدر أي بادرة للعودة، دماغه لا يستجيب وجسده لا يتحرك. تغنج الممرضة ثم تَحك ردفها بساق الطبيب الذي تبدو عليه الإثارة واضحة.

انظري جيدا أيتها اليافعة إلى عينيّ وستدركين أني مُصرٌّ على العودة، استمعي جيدًا لدقات قلبي وهي ستخبرك بأنني ما زلت حيًّا، وأني قادرٌ على الغناءِ والرقصِ والمضاجعة أيضًا.

الغيبوبة التي تحدّث عنها الطبيب المُثار تُشعرني بالخدر والبلادة، لذّة لا يُمكن وصفها ترافق الغرق في بحر من الغياب والفقد، جو

هُلامي يُشعرني بالخفة، أرتفع عاليًا لأرى جسدي المُسجّى مفترشًا السرير وسط الغرفة.

تُسندُ الممرضة رأسها على صدر الطبيب، فيرفع رأسها بكلتا يديه ويمدُّ شفتيه ليَختطفُ قُبلةً، ترتعش الممرضة وتُبعد جَسدها عنه، لكنه يعاود الكَرّة ويَطبعُ قُبلةً جديدة فوق شفتيها فتستسلم وتُرخي جسدها..

- حكيم، اتركني أرجوك، أخاف أن يرانا أحد ما.

يسري الدم في عروقي، نبضي يزداد، تتفتّق خلايا دماغي باحثة عن منفذ من القفص الذي سُجنت به، أشعر بأن شيئًا يكمم فمي، أود أن أنتفض وأصرخ بأنني لا أقبل الموت، لن أرضى أن أغادر هذه الدنيا بهذه السهولة، فها أنا أرى وأسمع وأحسّ، فلم لا أستطيع العودة إلى ما كنت عليه!

يا معشر الأطباء العاجزين! هل نفدت عقولكم من دواء لما حلّ بي، أصرخ! يملأ جوفي سواد من عدم، أصرخ لكن فمي لا يصدر أي بادرة للحياة، لقد تصدّع جسدي وأصبح مجردًا من الإحساس.

على طرف السرير، يجلس الاثنان بعد موجة غامرة من الحب، يتفقّد الطبيب نبض قلبي المتزايد، يهزّ رأسه بغرابة، ويُسهم قليلًا قبل أن تتجه إليه الممرضة.

- حكيم، ما حدث بيننا كان خطأً جسيمًا، كيف سمحت بهذا أن يحدث؟

- ما الذي تتفوهين به؟ ألم تستمتعي بذلك؟ إنها لحظات جميلة يجب أن نسرقها، انظري إليه.

ويؤشر الطبيب بأصبعه باتجاهي ثم يردف:

- هذا هو حال الجميع في نهاية المطاف، الحياة أقصر من أن نلوم أنفسنا على تعقيدها، فلنعش ونسرق كلّ متعة، فنحن لا نعلم ما القادم.

القادم أيها الحكيم هوّة سحيقة تلتهم الماضي وتعصر الحاضر، تتكسّر الساعات في قاعها مثل زجاج هَشٍّ سقط على أرض صلبة، فوهة مُظلمة تبتلع ما هبّ لها من الوقت، حيث يَحفُّ نفسه بالمجهول الذي يخاف منه الجميع. القادم مجرد انعكاس خفي في مرآة الزمن.

كان العطب قد أصاب جهتي اليمنى، لقد أتلف المرض جزءًا كبيرًا من تلافيف دماغي، رائحة مشارط الأطباء لا تفارق أنفي، لكن طمأنينة شفيفة تُظلل يومي، أعرف أنه سيأتي من وسط سواد الذكريات أمل ما، يخرجني من قماطي الذي لم أختَرْه يومًا، أملٌ سينسف نظريات العلماء، ثم يتجدَّد جسدي وترتاح روحي، سأتبخّر مثل مياه نهر مقدس تحت شمس قائظة، وأتكثّف لأصبح غيمة ماطرة، وعند أول فرصة سأهطل بردًا وسلامًا.

الدقيقة الرابعة عشرة

نحن نَسرقُ الحياة، نسلبُ اللحظات، لصوص بطبيعة حالنا، نتشبث بها حتى آخر لحظة، نَكذب، نتزلّف، نُعاند، نَقتل ونُقاتل، لعبتنا الصغيرة دائمًا مقرونة بالوقت الذي نعيشه، نسرقه، ثم نُعلّبه في دواخلنا لكي تطول أعمارنا.

منذ اليوم الأول للولادة، نتعلم بالفطرة فنون السرقة، نَكبر وتزيد حصافتنا فيها، نتحايل على العمر، نمارس الرياضة، لا حبًّا فيها بل لأننا نتوسل الجسد بأن يعطينا مزيدًا من العمر، نأكل أجود الطعام، نستخدم المنبهات لنقتنص الفرص ولا ننام، نُجمّل وجوهنا بالمساحيق لنبدو أصغرَ عُمرًا.

الصغير يتمنى أن تمضي السنوات ويكبر، الذكور يتباهون بخشونة أصواتهم والإناث يزيد بريقهن بتكور صدورهن، يود الفتية أن يمضي الوقت بسرعة ليدخلوا في مرحلة المراهقة، وعندما يصل بهم المطاف إلى منتصف العمر يتمنون أن يرجع العمر بهم قليلًا، مؤامرة تنطلي على الكل بالرغم من علمنا التام أن أمرنا سينكشف يومًا ما وسيداهمنا شرطي العمر بتهمة السرقة وسُنزجُّ في أقسى سجن مخيف أوجده الله، إنّه سجن الموت.

أنا لص، هذه هي الحقيقة التي أضمرتها طوال عمري، لم يعرف عنها سوى القليلين، خبأتها عن أقرب الناس لي، لا يعلمون أني لصّ محترف، لص تعلّم بإتقان أصول السرقات ودرس علومها عند أمهر النشّالين، أساتذة تُرفع لهم القبعات، خُبراء مَهرة بعلمهم وأستاذيتهم.

اللصوص أنواع، أشجعهم من لديه القدرة على السرقة المباشرة ومجابهة الحقيقة من دون نكوص، اللصوص الذين يسرقون أموال الشعب، عادة ما يكونون جبناء، يستترون خلف سلطاتهم ولا يتجرؤون على الظهور، هؤلاء يسرقون الفقير لخدمة الغني، وبهذا يعم الفقر ويزيد الظلم وتصبح الدولة بعيدة عن العدالة الاجتماعية.

نظام الضرائب أيضًا شكل آخر للسرقة مستترٌ خلف القوانين، قد يكون مؤطرًا بلغة وأنظمة عصرية، لكنه بباطن الأمر سرقة (مقوننة)، فالدولة التي تتمتع بقوة وسلطة تجبر مواطنيها على دفع الضرائب وعن رضى خاطر، ثم تختفي أموال هذه الضرائب من دون أن يعلم المواطنون مآلها، إنها لعمري سرقة كبيرة وأفحش وأشد وطئًا وضررًا من كلّ السرقات الأخرى التي قد يعرف سارقها.

في سنّ المراهقة، كنت لا أزال حينها في المرحلة الإعدادية، وقد درج أستاذ الرياضيات على استفزازي، كان يتعمد إهانتي أمام الطلبة بدون أي سبب يذكر، ولهذا فقد كنت أتجنبه، حاولت مرارًا أن أكون لطيفًا معه، لكنه وفي كل مرة أحاول التقرب منه ينفر مني ويكيل لي الشتائم والجمل الساخرة التي تدعو الطلاب الآخرين إلى التندر عليّ.

عندما قررت الانتقام منه، كان وقت الامتحانات النهائية قد حان، غافلته بينما كان يصحح أوراق الطلبة، سرقت مفاتيح سيارته ثم تسللت بين الممرات لأصل إلى كراج المدرسة، توجهت إلى سيارته ثم بحثت عن شيء لأسرقه فلم أجد غير مسجل السيارة الذي انتزعته وأخفيته في حقيبة المدرسة، ولكي أزيد معاناته فقد دفنت المفاتيح تحت سور المدرسة.

كان الطلاب في المدرسة يتجنبون الخوض معي بأحاديث جانبية، كنت دائم البحث عن ماهية الحياة، يطيب لي اكتشاف المستور، لا أقبل بالبديهيات كما هي وأجادل حتى ينفد الكلام من جوفي.

نشأت في بيئة محافظة وبيت تسنّ القوانين فيه ولا تخرق، فقد علمنا أبي القرآن أنا وأختي الصغرى تغريد وكان يعشق صوت الشيخ عبد الباسط، تعلمت أيضًا القراءة والكتابة، كنت قارئًا نهمًا وكان أبي يخصص لي مصروفا لشراء الكتب التاريخية والأدبية لكنه كان يؤنبني لإهمالي المتواصل لواجباتي ولعدم احترامي للوقت، ذلك الطفل الذي لا يحسّ بتأنيب الضمير عندما يضيع وقته في اللعب هو الطفل السعيد.

عمل أبي كمراسلٍ في شركة الكهرباء التي تقاعد منها بعد خدمة طويلة، وبعد تقاعده تغيرت شخصيته، فقد غدا الرجل الصامت والذي لا يطيق صبرًا، ولم تعد علاقته مع أمي كسابق عهدها خاصة، كنا نستيقظ كل يوم على خلاف بينهما، تحدثه أمي بعصبية عن أراضٍ وعقارات استولى عليها عمي وسلبها منه.

- سرقك وها هو اليوم يتنعم بها ورثته، ونحن في أمرّ حال، اذهبْ إليه وارجعْ حقك، ألا ترى كيف أصبحت حالتنا؟

فيقطّب والدي حينها حاجبيه وتنقبض أساريره ثم يقول:

- يا امرأة إنه أخي، إذا لم يرجعها بنفسه فلن أطلب منه شيئًا.

مات أبي مرفوع الرأس لكنه أورثنا عدة خيبات، خيبة الفقر وخيبة شعوري بظلم عمي لنا، كانت أمي تحرك فيّ هذه العاطفة، تُذكرني بهذا الإرث الذي عَجز والدي عن استرجاعه.

- والدك طيب القلب ولكنه كان جبانًا، تركنا بهذه الحال، فقراء مقهورين، وعمك يتنعم الآن بمالنا.

- أمي، لا تقسي عليه أكثر، لن يضيع حقنا وأنا موجود.

وتبتسم أمي ساخرة، بل إنّها تقهقه.

- أخاف أنك ستكون ظلًا لوالدك، ونعيش بضائقة كما كنا.

وددت لو كان عمي رشيد رؤوفًا بنا، لكان احتضننا بعد موت والدي وجنبنا ما نحن فيه من قلة وعوز، كان عمي رشيد من أم ثانية لجدي، نشأ في كنف أمه مدللًا وغيورًا، الزوجة الصغيرة التي لم تنجب غيره، كسبت ودّ الجدّ الذي هَمّش أبناءه من أم أبي، كانت زوجة جدي قاسية، لا تألُ جهداَ لإبعاد جدي عن أبنائه، ونجحت في ذلك، كانت جدتي عجوزًا عندما قرر جدي أن يطلقها، عاش أبي حياة ضنكًا،

فوالده هجره هو وإخوته، ومع وفاة والدته ضاقت الدنيا بعينيه، وعندما مات الجد، استأثر عمي وأمه بالميراث كاملًا وأنكروا الأراضي والأموال التي تركها جدي.

تحول عمي بعدها من رجل نكرة إلى رجلٍ ذي شأن وذاع صيته، وبات الجميع يتحدثون عن كرمه الأصيل في إعداد المآدب للوزراء والنواب وغيرهم، وبعد أقل من عام سمعنا أنه أصبح شيخًا يساعد الناس في حلّ مشاكلهم ويتوسط للكثير في إيجاد وظائف لأبنائهم ويحيط به جمع من المرتزقة الذين يكثرون من كلمة (يا شيخ)، غريبة هذه الدنيا بتناقضاتها وسخافة سير القصص بها، رجل قبيح القلب يتحول في هذا البلد إلى شخصية جدلية ومهمة، كله إعلام حقير، والإعلام لدينا صناعة لا تخلو من الفساد والقبح، فإنْ كان لديك المال فما أسهل أن تشتري النفوس الضعيفة التي ستعلي من شأنك وتجعلك أسطورة.

لم يعد بيت العائلة دافئًا بعد موت أبي، غدت الجدران باردة وموحشة، أختي التي كبرت بسرعة، لم تنهِ الثانوية العامة، تقدم لها خطيب يعمل في أمريكا، كان زواجها كالحلم، تزوجت وسافرت في أقل من شهرين، هاجرت مع زوجها الذي لم يهتم لتفاصيل كثيرة طلبتها أمي منه، كان يود الزواج من فتاة بسيطة وكان شرطه الوحيد أن لا تكون مُتعلمة، زوج تغريد لم يكمل الإعدادية وهو لا يحب أصحاب الشهادات، كان دائم الحديث عن نفسه، وعن قصة معاناته

التي دفعته لأن يهاجر لأمريكا، تَحدّث أيضًا عن تفاهة الجامعات التي تُخرّج أفواجًا من المعتوهين الذين يزيدون البطالة.

في الأشهر التي تلت هجرة أختي مرضت أمي، اشتد عليها مرض السكري، صارت تعزف عن الطعام فنحلت وصار كلامها قليلًا، وفي أحد الأيام وأثناء عودتي من المدرسة تفاجأت بها وقد أسندت رأسها إلى سجادة الصلاة وأسلمت روحها بدون حركة.

كان يومًا قاسيًا، رجعت من المقبرة بعد أن وارينا جسدها، وبيتنا فارغ من الطعام، شعرت حينها بأن الفقر يولّد السخط، وأن السخط يخلق الشرّ، قررت يومها أن أتميز في كل شيء وأن أغير حياتي لأخرج من حالة الفقر.

كنت على مشارف سنة الثانوية العامة، أمضيت ساعات طويلة أدرس بدون انقطاع، هجرت الأصدقاء وسهراتهم وتفرغت بالكامل لإتمام دراستي.

قبل أن تموت أمي، تركت لي بعض النقود التي نفدت بعد أقل من شهر، وبت بعدها مجبرًا على العمل في أحد المتاجر، كانت وظيفتي بأن أُشرف على تحميل البضائع ونقلها من الشاحنات إلى داخل المتجر.

أنهيت مرحلة الثانوية العامة بتفوق ودخلت الجامعة بتخصص الآداب، كنت أعشق الموسيقى فحصلت على منحة لدراسة الموسيقى في معهد الفنون واخترت العود كآلتي التي أحب، أحس بنبض الوتر

على قلبي فأنتشي، لم يكن العود لي مجرد أوتار مثبتة فوق خشب مجوف، كان بمثابة النديم الذي يصب لي الخمر فأسكر بصحبته، نعرج سوية في أبراج من اللحن فنتعانق، النغم بمثابة مهدئ للأعصاب، يعلو فيصير شدوًا لذيذًا، أعزف بروح العازف الذي سيلاقي حتفه، روح تهيم بالكلمة فإذا كان اللحن انتشت وسكرت.

بعد تخرجي في الجامعة بدأت رحلة المعاناة للبحث عن وظيفة دائمة غير وظيفتي في المتجر لكن بلا جدوى، كان أستاذي في المعهد معجبًا بطريقة عزفي، عرض عليَّ أن أعمل معه في أوقات فراغي وأن أعطي دروسًا للأطفال، وبالرغم من المبالغ القليلة التي عرضت عليَّ لإعطاء حصص الموسيقى، إلا أنها كانت أفضل من العمل في المتجر.

كانت الموسيقى تُخدّر جسدي، تُرعشه فتتحفز شراييني، أخطو على السلم الموسيقي كأني أصعد درجًا إلى السماء، النوتة مشبعة بالحنين، يَلتمّ الصغار من حولي مُنشدّين إلى الأوتار التي تعزف لحن الخلود، اللحن الذي سيظل حيًّا لا يموت، يعيدون العزف من ورائي فيخطئون، يراقبون تفاصيل وجهي التي ترتسم بحدة النوتات وسلاستها فأدعوهم إلى مراقبة يدَيّ.

الغيوم في السماء ترتسم بتلقائية لتشكل جنينًا، سلة ورود، أشجارًا وهدايا عيد، أجلس وحيدًا بجانب المدفأة، صديقي كأسي الذي لا ينضب، وعودي الذي أحافظ عليه كما يحافظ أبٌ على ابنه، أعزف،

أغمض عيني، أحلق في سماء يعتريها الجمال، أعزف شعورًا ولا أعزف لحنًا، يخفّ وزني، تنمو لي أجنحة، أطير كعصفور بين الجبال التي داهمتها غابات الإسمنت ودلقت جمالها بين سفوحها وتمازجت مع طرقاتها، أحلّق، يعتريني أمل بأن القادم سيحمل لي مزيدًا من حسن الطالع.

كنت أمضي وقتي بين القراءة والموسيقى، نمت لدي قدرة عجيبة على الكتابة، فطفقت أكتب رواية طويلة، أفرغت فيها أحزاني وأفراحي، غضبي وهدوئي، كانت تدور أحداث الرواية بدون تحديد أي زمان أو مكان، وقد صورت البطل الذي أطلقت عليه اسم هارون كفارس وشاعر كريم النفس مقدام، لديه رزق كثير وحاشية قوية لكن أقوامًا أخرى طمعت في رزقه، فتمّ غزو قومه في ليلة ظلماء ليتورط في حرب تستمر لعدة أسابيع يموت فيها معظم فرسان القبيلة وتسبى النساء وييتّم الأطفال. وكي أزيد حبكة القصة، فقد دخل اثنان من جنود الأعداء على عائلته في الخيمة وقاموا بقتلهم، زوجته وابنته وابنه الرضيع ثم أشعلوا النار في الخيمة، أما هارون فقد تمّ سجنه وبيعه لاحقًا كعبد في سوق النخاسة.

هكذا كنت أرسم حياة بطلي في النهار، لكنه كان يأتيني في أحلامي، كان يرجوني أن أترفق به في الأحداث التي لم أكتبها بعد، كان يقول: ما ضرّك أن تكتبني بكامل أبهتي التي حرمتني منها، أريد منك أن ترجعني لزمن فروسيتي الذي أشتاق إليه، هل تراني عبدًا كما أنا الآن.

أراه حزينًا وجالسًا لا يستر جسده غير خرقة قديمة، نظراته كما وصفتها في الرواية، تكتنز دمعات لا تسقط من محجر العينين، معظم الأوقات التي تراءى لي فيها كان يقرض الشعر، يدندن بنبرة حزينة ثم يلتفت برأسه نحوي معتبرًا أنَّ الأحداث التي كتبتها كانت مجحفة بحقه خاصة بما يتعلق بموت زوجته وأولاده بهذا الشكل الشنيع، قال لي أنه تمنى مصيرًا أجمل لعائلته غير الحرق، ربما على الأقل الهروب من وجه الغزاة، حاولت أن أشرح له أنه لم يكن بمقدوري كتابة هذه النهاية السعيدة وأن القراء يحبون الانتقام، ولكي يحدث هذا لا بدّ من إثارة مشاعرهم بقتل كل العائلة وبطريقة بشعة كالحرق.

الدقيقة الثالثة عشرة

صوت جهاز القلب يرعش قلبي، لوحة النبضات تشير أنه لا يزال يعمل، أمضيت على هذه الحال عدة شهور، هو الحائط نفسه الذي يقابلني من جهة واحدة، صرت أميز الشخوص من روائحهم وطاقاتهم التي تملأ الغرفة، إحساسي يتضاءل يومًا بعد يوم، يرهقني صوت العصافير التي تُغرّد في الخارج، حركة السيارات وهبوب الريح، أفتقد رائحة الزهور ومنظر السماء، لماذا اختارني الله لهذا العقاب؟ كنت أود الموت بصورة طبيعية، أن أعيش وأشيخ ثم ينتهي عمري بعد أن أفني كل لحظات عمري.

تصل زاهية إلى الغرفة، أشمّ رائحتها، تجلس بجانبي وتمسك يدي، تمسّد رأسي بيدها الأخرى، كانت تحضر باقة زهور في كل زيارة لها، تطيل الحديث والنقاش، تسألني متى سأعود، وهل أحتاج إلى شيء لتعمله لي، تُعدل جسدي وتقلّبه، ثم تُغني لي أغنية (حبيبي بده القمر، والقمر بعيد) فأضحك في داخلي.

- حبيبي، قل كلمة واحدة وسأعطيك عمري.

ولا أجيب، يهتزّ قلبي ولا يأتمر الجسد، الشفتان مطبقتان كلحدٍ فرعوني والكلمات ملصقة في قعره كأنها أصمتت به.

تطير ذبابة في أعالي الغرفة ثم تقترب لتحطَّ فوق رأسي، الذباب يشبهنا كثيرًا، لكن عمره أقصر، الذبابة المعمرة قد يصل عمرها إلى شهر، مسيرة حياة تفصل الذبابة عن موت محتم إثر الشيخوخة عندما تصل ليومها العشرين، ستبدأ بعد هذا العمر الرذيل بالخمول والدخول في سن الشيخوخة، عدة أيام ستقسمها الذبابة إلى ساعات وثوانٍ وأجزاء من الثانية، فالذبابة الفتية ستكون بعمر الثلاثة أيام، والناضجة قد تصل إلى عشرة أيام، أما العجوز فقد تصل إلى الثلاثين يومًا وإذا جاز الحديث بلغة الذباب، فإن الثانية ستؤرخ لدى معشر الذباب، ويكون تاريخ مجيء صغير الذبابة مُثبتًا بأجزاء الثانية والدقيقة واليوم، وليس السنوات، فالشهر الذبابي يشابه القرن لدى بني الإنسان.

يعتمد الوقت في تكوينه على ثُلاثية مُحددة الأشكال، فهو يكتنف في داخله ذرات صغيرة تتفكك أو تتكثف أو تتناثر حسبما الموقف، تلك الثلاثية التي تؤطر نمط حياتنا ومماتنا، نلهو فنحس أن الوقت يتناثر ويتطاير مثل عطر لامسته الريح، لا نعرف كيف تلاشى حينها، ويتكثف ليصير لزجًا عند اشتداد موقف أو حدوث فعل محرج، تتثاقل ذراته ويصبح بليدًا عصيًّا عن التناثر.

أمّا التفكك، فهي الحالة الأهم والتي ينفصل فيها الوقت ويكون ببعده الحقيقي المؤدي إلى الموت، حينها يتكوّر ثم يتمدد، ويصبح ذا حواف حادة، ينبسط ويتمازج مع كلّ ذرات الكون الأخرى، فالذرات أصلها واحد، والوقت من ذرات لا نراها وإنما نحسّها.

يظهر الخوف على شكل ذئب من وراء الستائر البيضاء. ذئب لا ينطق بل يزمجر ويلهث، يقف منتصبًا ويسيل لعابه مبُديًا كشرة من بين عينيه الرماديتين، ينفث غيظه ولا يتحرك صوبي.

الألم يستتر خلف الخوف، ويظهر الخوف بانقطاع التنفس والتشنج الذي يصيب كل جوارحك من أعلى الرأس حتى أسفل القدمين.

قد تمرّ في هذا الوقت العصيب ببعض المشاعر الخفيفة الموشاة بالجمال، تلك التي ترفع طاقتك الإيجابية وتجلب الفرح، المشاعر الخفيفة عادة ما تكون مارقة ولا تدوم، كذكرى أول قبلة لفتاة أحلامك، انتصارك على بعض الطامحين الذين غاظتهم ترقيتك في العمل، ذكرى تصيبك بالابتسام دائمًا وتمتص ألمك لبعض لحظات، تمرق بسرعة مخلفة المشاعر الدائمة والعصيبة.

كان لقائي الأول بجمال هو بداية قصتي مع السرقة، كنت وقتها قد بدأت عملًا مسائيًا جديدًا كعازف في أحد الفنادق في منطقة الشميساني، وبالرغم من انشغالي الدائم بين وظيفة المعهد والفندق كنت أشعر بالملل والفقر، إلى الحد الذي منعني من شراء سيارة أو ارتداء ملابس جديدة، كان كل ما كنت أدخره يتبخر آخر الشهر عند دفع إيجار المنزل ومصاريفي الأخرى.

كان جمال ليلتها يجلس مع فتاتين على الطاولة الرئيسية في المطعم، لفتت نظري زجاجة الخمر باهظة الثمن التي اعتلت طاولته والخدمة

المقدمة له من قبل إدارة الفندق، عندما عزفت أول أغنية على العود كان الوحيد الذي يصفق لي، عزفت مقطوعة الربيع لفريد الأطرش فطار بها فرحًا ثم دعاني إلى طاولته بعد أن أنهيت وصلتي.

تلك المصادفة، غيرت حياتي بالكامل، ومن أول لقاء غدونا أصدقاء، جمال يزور المطعم يوميًا ويستمع إلى غنائي وعزفي ثم يدعوني إلى طاولته لنمضي الليلة نشرب حتى ساعة متأخرة من الليل، وفي إحدى الليالي سألني عن وضعي المالي والذي لم يعجبه، فأخبرني أن لديه عملًا سيدر علي أموالًا طائلة.

كانت مفاجأة كبيرة لي عندما اِلتقيته في الليلة التالية بعد أن أطلعني على العمل الجديد، لم يكن في الحقيقة عملًا بل عرض بمشاركته سرقاته وأن أكون مساعدًا له.

في البداية ضحكت من هذا العرض الذي أتلقاه من صديق اِلتقيته من عدة ليالٍ فقط، وكيف سأسرق وأنا لا أمتلك أية مهارة، أسئلة أخمدتها بعقلي بأني رفضت عرضه واعتذرت منه بل وأنَّبته ببعض الكلمات التي ابتسم بعدها وربت فوق كتفي، ثم أخرج سيجارة وأشعلها وبنبرة جدية قال:

- أنا أعرف عنك كل شيء يا صديقي، حياتك، عملك، حتى قصصك الصغيرة، لقد سألت عنك وجمعت عنك الكثير من المعلومات، السرقة التي أتحدث عنها يا عادل لا تعرض على أي

أحد، لقد قدمت لك عرضًا ستشكرني عليه لاحقًا. وصدقني شخصيتك تلائم هذا العرض تمامًا، أنت الشخص الذي كنت أبحث عنه منذ سنوات.

- أنت تمزح معي، أنا فنان ولا أعرف شيئًا عن السرقة، كيف تريدني أن أتورط في هذا الأمر، ثم ما الذي يجعلني بنظرك ملائمًا لهذا الوصف الذي تبحث عنه.

- يا صديقي، لا بد أن يكون اللص ماهرًا وأنيقًا وأنت كذلك، ثم السرقة التي أتحدث عنها ليست سرقات عادية، نحن نسرق الفاسدين ونساعد الفقراء الذين نهبهم الأغنياء، وفي كل الأحوال فإن أحوالك معدومة ودخلك متدنٍ فلم المزاودة على قبول العرض.

حدثني ليلتها جمال عن سرقاته، عن لذة سرقة الفاسدين الذين نهبوا البلاد وحولوها لمزارع خاصة بهم وبعائلاتهم، يروي جمال قصصه المتعددة في السرقة، والتي لم تستثنِ شخصيات مهمة في البلد؛ تجارًا، أصحاب عقارات، مسؤولين، نوابًا ووزراء، وحتى رؤساء وزراء.

يرفع جمال يديه كمحاضر جامعي يشرح نظرية مهمة، يتوقف عند بعض المصطلحات الخاصة بالسرقة كـ عملية، عميل، الوقت الصفر، راحات، والإيجابية، روح فارس، كيف لسارق أن يتحدث عن إيجابية الحياة؟ يقول جمال بأن الإيجابية هي النية التي يسرق لأجلها، هي

القصد النهائي من وراء السرقة، وهي إن كانت نوايا حسنة ضد الشر، فهي إيجابية، وإن كانت بنية خاطئة وضدّ الخير فهي بالضرورة سلبية لا ينبغي المضي بها. في نهاية الجلسة قبلت عرضه، كنت لا أزال ساخرًا من الوضع في قرارة نفسي.

عدت إلى بيتي في وقت متأخر، جلست فوق السرير وبدأت أعزف لحنًا جديدًا، كان اللحن عن سارق حوّل مهنته إلى قصة ملحمية، تحدٍّ وخطر صار أمامه عذوبة ولذة، تخيّلت أنَّ السلم الموسيقي يسير جنبًا إلى جنب مع خطط السرقة التي تكلم عنها جمال، الموسيقى تحتاج إلى تدرب وحب، والسرقة كذلك، تحتاج إلى مهارة وشغف، كلاهما متصل بتكتيك إذا أخطأت به ضاع اللحن وانكشفت الصورة، في تلك الليلة وبعد انتهائي من نشوة اللحن قررت زيارة عمي والحديث معه بكل الإيجابية التي حدثني عنها جمال.

كان عمي رشيد فاحش الثراء، من أوائل الذين سكنوا منطقة عبدون متخذًا له في قمة الجبل قصرًا كبيرًا، اعتمد عمي الثري على أبنائه في إدارة شؤون أملاكه التي اتسعت وتنوعت.

في اليوم التالي، استقليت سيارة بالأجرة للوصول إلى قصره، طالعتني عند الباب خادمة ذات بشرة سمراء، سألتني بلطف عن اسمي، فأبلغتها أنني ابن أخيه، غابت الفتاة دقائق وأنا واقف في ردهة الباب ثم سمحت لي بالدخول.

ظهر شبح عمي الضخم بعد أقل من عشر دقائق، كانت ترافقه زوجته، صافحت يده ثم جلسنا وسألني إذا كنت أود أن أشرب شيئًا فاعتذرت، تنحنح وسأل عن حال والدتي، هل هذا الرجل أخرق؟ قلت له إنّها توفّيت قبل أكثر من عامين فلم يتفاجأ، على الأغلب أنه يعلم ذلك مسبقًا، كانت زوجته تلوك بشفتيها مُبدية انزعاجًا من حضوري.

- ما الذي تفعله هذا الأيام يا ابن أخي؟ قال عمي.

- أنا، لم أجد عملًا بتخصص الأدب، لكني أدرّس الموسيقى لبعض الأطفال في معهد الفنون في الصباح وأعزف في أحد الفنادق في المساء.

ضحك بشكل ساخر وعدّل جلسته ثم نظر إلى زوجته التي تنهدت ووضعت يدها فوق شفتيها كاتمة ضحكة.

- نحن عائلة نعشق الفنّ ونحبُّ الأدب، كنت في صغري أكتب الشعر وأغني، لكن ظروف الحياة منعتني من إكمال ما بدأته، الحياة يا عادل غدت صعبة هذه الأيام وتحتاج إلى خفة في الحركة وطول بال وجلد على الصعاب.

قال عمي ثم ربت على كرشه المتهدل وأردف:

- في مثل سنك، كنت جنديًا في الجيش العربي، ومع أن راتبي لم يكن يزيد عن خمسين دينارًا إلا أنه كان لدي آنذاك بيت وزوجة

وأساعد والدي وأصرف على إخوتي... أنتم يا ابن أخي جيل خائب ولا يكفّ عن الكسل والشكوى.

قام من مجلسه باتجاه خزانة كبيرة ثم فتح جارورها وتناول منها محفظة سوداء، أخرج منها خمسين دينارًا ثم مدّها باتجاهي.

- لا تقلق يا ابن أخي، خذ هذه وإن شاء الله ستفرج عليك، وإذا رغبت بالعمل لدي فأنا مستعد لتشغيلك منذ اليوم، لكن بتخصص الأدب فإنَّ خياراتك محدودة، ربما أستطيع تشغيلك مؤقتًا في مصنع الجلود أو في شركة الأدوية.

أدهشني كيف يتحول الجشع إلى قسوة وتتحول القسوة إلى وقاحة تجرح القلوب ولا تشفيها، تركت يده ممدودة للحظات، لم أستطع الكلام، أحسست بثقل يربض فوق صدري وحشرجة في صوتي.

- عادل، هل ترفض هدية عمك؟ خذ يا بني. قال عمي وقد تغيرت نبرة صوته.

- أنت لست أبي ولن تكون، أنت لم تسأل عنا يومًا، هدية يا عمي! أي هدية ستعوضني عن مال أبي الذي أخذته عنوة منا.

امتقع وجهه، وتهدل حاجباه وغاب الصفاء من ملامح عينيه، وبيده التي تمسك النقود ضرب على الطاولة بشدة فتطايرت ورقة الخمسين دينارًا بعيدًا عن مجلسه، فانتفضت زوجته والتقطتها عن الأرض.

- أي مال يا ابن أخي؟ لعلمك، لا مال لك عندي، لا أنت ولا والدك المرحوم، اعلم جيدًا أن هذه القصص من تأليف أمك الخرقاء.

- لا تتفوه بكلمة عن أمي أيها العجوز، لم أطمح من حضوري هذا إلى الكثير منك، أعرف أنك رجل نذل وبعيد كل البعد عن شيم الرجال.

انتصب في جلسته ولوح بيده مهددًا لي بأن أخرج من منزله.

- سأخرج، بعد أن ترجع لي ملك أبي الذي سرقت.

- ليس لكم عندي شيء، لقد قلت ذلك سابقًا، هذا الملك الذي تراه صنعته من عرق جبيني ولا يوجد لكم في ذمتي قرش أحمر، أبوك العنيد اختار عيشة الفقر وأورثها لك ولأمك، ما ذنبي أنا؟

- ولهذا لم تحضر لجنازته ولم تزرنا قط، يا حيف عليك أيها الشايب، ستموت من جشعك وأكلك لمال الأيتام، عُدْ إلى رشدك وأرجع أموالنا وأعدك بأنك لن تراني مرة أخرى.

عندها أمسكني من يدي ثم دفعني بقوة باتجاه الباب.

- انصرف، لعنة الله عليك وعلى أدبك.

خرجت من منزله مرغمًا، كان قلبي يمتلئ بالحقد عليه، طردت من بيته الذي بناه من سرقته لأموال أبي، كيف لِعَيْن أن تطمئن وتنام قريرة وصاحبها ظالم لا يخشى الله.

لم أستطع النوم ليلتها، جاءني هارون حزينًا، ظهرت في حلمي زوجته هذه المرة، كانت تقف إلى جانبه وقد احترق نصف جسدها، ترتجف الصور لأرى هارون وقد أعد عدة للانتقام ممن قتلوا عائلته، ينظر بطرف عينه إلي، ينشغل بتجهيز جيش كبير بالسيوف والخوذ والرماح، يعتلي حصنًا بلون أبيض، يصرخ لكنني لا أفهم ما يقول، على الأرجح أنه يحفز الجنود لقتال الغزاة، هارون يراني، كيف له أن يتسلل إلى أحلامي بدون إذن، يرتعش قلبي فأستيقظ من نومي منزعجًا.

الدقيقة الثانية عشرة

ليل عمان غدا ثقيلًا، أحسّه كمجرة صُهرت على شكل فولاذ وصبّت فوق صدري، وهن أعيشه الآن. ملل يطبق على عنقي ويجعلني أهرب للنوم، أنام بشكل متواصل، وبين صحوي ونومي يلتصق برأسي غلاف خفيّ، تلك المرحلة التي تفصل اليقظة عن موت النوم، شفافة وهلامية، قد ترى بها أحلامًا وأشباحًا بلا تفسير للحالة التي تمر بها، كلّها حالات يلعب الوقت فيها دورًا مهمًا، حين تغط في غياهب النوم فالوقت ينعدم وتصبح جدليته بحكم الفعل المنتهي، تؤكد الأساطير ذلك، فالذين ناموا مئات السنين لم يعوا الوقت بل أحسوه كيوم مضى، وعندما استيقظوا أدركوا أنهم قد ناموا طويلًا.

عمان تغيرت، لم تعد تلك المدينة العذراء التي ينام أهلها بسلام، تحولت إلى مدينة صاخبة لا تنام، وتغيرت قلوب قاطنيها، خوت من الحبّ وحلّت المصلحة محلّها، أضحت المدينة مزدحمة بخلق كثير ودخلاء لا يأبهون لغير مصالحهم، تفتتت أواصر العائلة وصرنا نسمع عن قصص تحاكي الخيال، فقر طغى على جيوب الناس وسياسة تجويع انتهجتها الحكومات طوال العقدين الماضيين أدّت بالخلق إلى تغيير ثقافتهم، أصروا كثيرًا على حفظ كرامتهم، لكن الجوع كافر، والكفر

يؤدي إلى التهلكة وضياع الحقوق. ضاعت الحقوق وتفرقت الجموع وتفسخت في غمرة اللهاث نحو لقمة العيش.

تقول زاهية إنَّ المستقبل سيكون أجمل من الحاضر، تصبغ حياتي بألوان كلها بهاء، تلاطفني وتقف بجانبي، كنت أداعبها بأن القادم مجرد سيل من الوقت يمضي باتجاه مستقيم لا دائري، ولهذا تنتهي الحياة عند حدّ معين من المستقيم، لو كان الزمن دائريًا لبقينا في ذات العمر وعندها لن تنفد الساعات بل ستتكرر. أحدثها عن قصة هارون وزيارته لي المستمرة في المنام.

كانت تضحك من كلماتي التي تقول إنّها لا تفهم مُعظمها، تُسدل شعرها فوق كتفي، تعانقني ثم تطبع قبلة فوق شفتي.

- بين الموسيقى وفلسفتك وأدبك ضيعتني، حاول أن تعيش كباقي الناس دون الوقوف عند كل صغيرة وكبيرة، الكون عامر يا حبيبي والحياة مستمرة، حرر بطل روايتك من عذاباته، ادخل الفرح بين سطور حياته وزوده بالأمل والمحبة.

أبتسم لكلامها ولا أجيب، يصيبني خرس أمام حسن جمالها، أضمها إلى صدري وألثم شفتيها.

أذكر أن زاهية هي الشخص الأخير الذي رأيته في غرفتي قبل العملية الجراحية التي أجريت لي، كانت تتكلم مع الطبيب الذي كان

يشرح لها عن العملية، كان يهمس لها بأن العملية في غاية الخطورة وأن نسبة النجاح ضئيلة، تُقطّب زاهية حينها حاجبيها، ثم يلجم الصمت شفتيها، تدور حول السرير عدة مرات ساهمة، تتجنب النظر إلى عيني بشكل مباشر، وعندما تلتقى العيون تبتسم لي في محاولة إضفاء نوع من المرح.

- ستكون بخير أيها الجميل، ستخرج بعد العملية مشفيًا معافى.
- ما أجمل قلب هذه المرأة، التي تزين الحزن بالفرح، بعض النساء يعطين الحياة طعمًا جميلًا، وبعضهن يسلبنه منك، الحنان مفتاح في شخصية المرأة فإن فقدته تحولت أنوثتها إلى حجارة صماء، وإذا منحت المرأة عطفها منحته بزهو وفرح.

في إحدى الزيارات لزاهية، ضمتني وأخذت تبكي، حدثتني يومها عن حاجتها لي، ذكّرتني بأيام قضيناها كاملة بالفراش وأنا لا أجيب، لحظاتنا تلك مرت كسهم خاطف، كانت تشتكي عادة من قصر الوقت ونحن بأحضان بعض، تمر الساعات دون أن تستأذن، كنا نلتقي صباحًا، أحتضنها كعصفورة وأقبّلها، تنشغل هي وتبتعد قليلًا لكني ألاحقها وأختطف قبلًا سريعة ما تلبث أن تتحول إلى قُبل تستمر لدقائق عدة، القبلة عند العشاق بمثابة لغة لها حروفها وكلماتها، لغة لا يحتاج العاشق تعلمها، فهي تختزن المحبة وتنتقل بين الثغرين

بدون مقدمات، نذوب معًا، أحس بحرارة تسري بشفتيها، وريق عذب يخرج ليزيد الشهوة بيننا.

نتدحرج على أرض الغرفة، نتطارح الغرام في كل مكان، فالجنس الحقيقي لا يؤجل ولا يخطط له، هو أقرب إلى الطبيعة والصدفة منه إلى التخطيط، فإذا لم يكن طبيعيًا جاء باردًا وبلا طَعم.

أذكر جيدًا كيف تعرفت بزاهية، لقد كانت مصادفة غريبة غيرت حياتي، كان ينبغي علي يومها أن أُنهي عملية سرقة منزل محمد الجاسم، هذا الرجل الذي يملك عددًا كبيرًا من الشركات والعقارات، رجل مكروه من الجميع، يتميز بالجشع والخشونة في معاملة موظفيه، حدثني حارس العمارة في إحدى شركاته بأنه طرد أحد الموظفين لأنه وجد دبوسًا مرميًا أمام مكتب الموظف.

كان فناء البيت يخلو من أي كائن، يقطن محمد وحيدًا، تأكدت من ذلك لمدة أسبوع، كانت الخادمة تغادر الساعة الرابعة، بينما تتحرك سيارته كل يوم في الساعة السادسة، كان يعرج إلى أحد المطاعم ليلتقي بفتاة عشرينية، يجلسان قرابة الساعة ثم ينطلقان إلى شقة في منطقة الرابية، يمضي الليل كله في هذه الشقة ليعود إلى منزله صباحًا.

بعد أن تأكدت من خلو المنزل، أخرجت عدة الأقفال وعالجت غالة الباب فانفتح بسهوله، ينبعث من المنزل رائحة عطر نسائي،

الأضواء خافتة، تنسدل الستائر لتزيد الظلال في الصالة الواسعة ذات الأثاث الفخم.

نظرت إلى نهاية الصالة، فتفاجأت بامرأة تجلس فوق الأريكة، لم أتوقع وجودها، نظرت إليّ وقامت من مجلسها ورفعت يديها نحو وجهها، نظرت إليّ بعينيها الخائفتين، ثم تجمدت في مكانها، اقتربت منها ورجوتها أن لا تصرخ.

- لا داعي للفزع.

- من أنت أيها الغريب، هل أنت لص؟

كان شعرها يغطي وجهها، عيونها تطالعني بخوف ورجاء، لم أنبس ببنت شفة، فقد عقد الخوف لساني، هي المرة الأولى التي أواجه فيها أحدًا خلال سرقاتي، كنت دائم الحرص أن تكون المنازل فارغة من أهلها، كيف أخطأت، كيف غاب عن فكري أن بعض الناس لا يغادرون منازلهم.

- أنا!

- هل ستؤذيني؟ سأعطيك كل ما أملك مقابل أن لا تمسني بسوء.

قالت المرأة جملتها ثم بدأت بالبكاء.

كانت خدودها بلون الشفق، يندلق شعرها فوق وجهها فيزيدها جمالًا، عيونها الخضراء تأسر ناظريها.

- لن أؤذيك، أهدأي أرجوك!

- أيها اللص، اعلم أنني لن أصرخ إذا بقيت بعيدًا عني، سأغض عينيَّ جانبًا لتتمكن من الهرب، صراحة أنا لا أملك شيئًا كما قلت لك، فقد سلبني زوجي روحي قبل أن يسلبني أموالي.

صدمني حديثها، أحسست بأمان وشعور غرائزي بأني أعرف تلك المرأة.

- أنا لن أسرق منك شيئًا، اسمي عادل، وأنا أعتذر عن هذا الموقف.

توقفت المرأة بعد ذلك عن البكاء، ثم رمت جسدها فوق الأريكة القريبة منها، نظرت إلي ثم قالت:

- لم تعد تهمني هذه الحياة، في الحقيقة أنا أتمنى الموت.

تلعثمت، لم أدرِ كيف أجيب هذه السيدة التي قلبت موازين عمليتي كلّها، لكنها الوصية الرابعة من اللَاءاتْ؛ كن عطوفًا، وها أنا بكل تلقائية أجلس بجانب المرأة الغريبة التي سحرني عطرها، أستطيع تمييز رائحة جسدها الشقي الذي يستتر خلف الملابس، تشدّني تلك الطاقة التي تدثرت بها هذه المرأة الحزينة.

- لم الحزن وأنت بمثل هذا الجمال والأنفة، ألا تعلمين أنَّ الحياة جميلة وأنت، انظري إلى نفسك، ما زلت في كامل عنفوان أنوثتك.

- اسمي زاهية، ولكني نسيت كيف يفرح الناس، نسيت ضوء النهار والتجأت إلى ظلمة المنازل، أنت لا تعرف شيئًا أيها اللص الظريف. ما اسمك؟

- أنا عادل، لماذا تتمنين الموت؟

- لقد كنت فيما مضى أزهى النساء وأجملهن، لكنه سمّمَ حياتي بكذبه وبمؤامراته التي لا تنتهي، انظر إلي، انظر كيف أصبحت امرأة تعيش كفئران المنازل، أستجير من ضوء النهار وأهرب إلى الظلمة.

- من هو الذي سمّم حياتك؟

- إنه زوجي، المليونير الذي جئت تسرقه، صاحب الملايين والعقارات والشركات، الاسم اللامع في المجلات والتلفاز.

- أجل، أعرف عنه الكثير، لكني لم أتوقع أن يكون متزوجًا، لقد راقبت منزلكم أكثر من شهر، كان يبدو لي أنه يعيش وحيدًا مع بعض الخدم الذين يغادرون البيت إذا حلّ المساء.

- إذًا لا داعي أن أحدثك عنه، فأنت تعرفه.

- أعرف حجم ثروته، تحركاته، وشركاته.

كانت زاهية تلعب بشعرها وهي تتحدث، يبدو القلق جليًا في نبرات صوتها، تنظر إلي مباشرة تارة، وتبحلق في الستائر من أمامها تارة أخرى ثم تردف:

لقد عرفت محمد الجاسم من خلال عمله في إحدى الصحف اليومية، أذكر جيدًا كيف زارني في المكتب لإجراء حوار صحفي، كان مكتبي في الطابق العاشر والذي يقع في منطقة الرابية، مكتب زَينته بديكورات فخمة وبأثاث مبتكر، انبهر محمد من فخامة المكان، أذكر بأنه كان يجلس أمامي كتلميذ في الصف، يكتب ما أملي عليه، لكني لاحظت نظراته المتأملة للمكان وهوسه الغريب بالأبهة الموجودة.

أنا زاهية العاصي صاحبة أكبر الشركات في الأردن في مجال التسويق والإعلانات، التي صنعت ثروتها بكد وبعمل متواصل، كان محمد دمثًا، عطوفًا، وفي منتهى الرقة، بعد أن انتهينا من المقابلة دعاني إلى العشاء فرفضت بحجة انشغالي، تبادلنا أرقام الهواتف ومضى في طريقه.

مرت ثلاثة أيام قبل أن أنتبه أنه قد أرسل رسالة قصيرة يخبرني بها بأن الحوار قد نشر في الصفحة الرئيسية للصحيفة، تناولت الجريدة واستمتعت بقراءة المقابلة، كان محمد قد أضاف الكثير عن قصص نجاحي، وكيف أني استطعت خلال عدة سنوات أن أمتلك نصف حصة السوق.

أعجبني أسلوبه في المقابلة، ورفعت السماعة، واتصلت لأشكره، كان كعادته لطيفًا ودودًا، وفي نهاية المكالمة طلب مني مازحًا أن نلتقي، فوافقته ودعوته إلى العشاء عرفانًا مني على المقابلة الصحفية.

لم أعره في بداية الأمر أهمية، قلت لنفسي إنّه مجرد عشاء وسيمضي كل واحد فينا إلى طريقه، لكن نظرات عينيه لي خلال العشاء واهتمامه بي قد أيقظ في داخلي الأنثى النائمة التي فاتها قطار العمر بدون زواج، تلك الأنثى التي غَطّت في نومها عشرات السنين دون أن تنتبه بأن العمر يمضي، كبيرة هي الأماني التي نفكر بها ونفرح لتحققها تارة، ويصيبنا حزن لتأخرها تارة أخرى، وعند تحققها ندرك أنها أمانٍ صغيرة ما عادت مجدية.

كانت كلماته تتحول إلى شعر غزلي بمجرد سماعي لها وإحساسه الذي أطلقه عبر الغزل المتكرر يتسلل على شكل دغدغة يحمر لها وجهي، تسامرنا، شعرت ليلتها بأنني عصفور يطير بدون أي قيود.

أحسست خلال الأيام اللاحقة بقربه مني، تودد إلي، كان مختلفًا عن كل الرجال الذين عرفتهم في حياتي، استطاع بغضون عدة شهور أن يملك قلبي، ذلك القلب الذي اعتاد على العمل فقط، وأخيرًا وجد مراده، تجرأ بعدها وطلب يدي للزواج، كنت فتاته التي يغار عليها، وظهر معي أكثر من مرة فكتبت الصحف عن المليونيرة صاحبة أكبر الشركات التي تواعد صحفيًا فقيرًا، جُنّ جنوني وقررت حينها أن أنهي الكلام فوافقت على عرضه، أجل أنا التي اشتريت حتفي بيدي.

عندما تزوجنا، كنت أكبره بعشرة أعوام، كنت آنذاك في سنّ السابعة والثلاثين، وبحكم تأخري في الزواج نسبيًا فقد حمدت الله بأن سخر لي هذا الرجل لأكون حليلته.

منذ اليوم الأول لزواجنا، أحسست بشعور غريب، خاصة عندما تغيرت نبرة صوته، وملامح وجهه التي ازدادت مع الوقت تجهمًا، كان كلّما اشتكى لي أهديته شيئًا ثمينًا، ساعتها أحسست بشرهه الكبير للمال، لكنني لم أتوقف عند ذلك، قال لي بأنه الشخص الوحيد في هذه الدنيا الذي يخاف على ما أملك، لا أدري ما الذي أصابني حينها، لقد شل عقلي عن التفكير وبات قلبي هو المحرك لجسدي، ألم يقولوا بأنَّ الحب أعمى، في حالتي لقد كان أعمى وأبكم، لقد حوّلني الحب إلى آلة مبرمجة يتحكم بها محمد متى شاء.

كان محمد الجاسم يخطط لأن يستحوذ على كل ثروتي ويستغلني، لم أنتبه أن إعطاءَه وكالة عامة سيقلب كلّ حياتي ويحيلني إلى غريبة عن شركاتي التي ستنتقل ملكيتها باسمه، غافلني هذا المحتال، سافرت إلى فرنسا لمدة أسبوعين لأنجز إحدى الصفقات، كان من المفترض أن يقوم هو بغيابي بإتمام بعض المعاملات الحكومية الخاصة بشركاتي، ولهذا فقد أعطيته وكالة عامة، لم أشكك للحظة بنزاهته، لم أدر أنه يخطط لنقل كل ما أملك في فترة غيابي، لم يتبق لي غير السيارة وهذا البيت، لم يسعفه الوقت لسرقتهما، تبًا لي.

قربت زاهية شالها من وجهها وأخذت بالبكاء، لم يخف جمالها حتى مع بكائها المستمر، كانت تبكي بطريقة يتزايد فيها النشيج كلما زاد صمتي، بقينا في الصالة لبضع دقائق واجمين، هي تبكي وأنا أراقبها.

- توقفي أرجوك، المهم أنك بصحة جيدة، كل الأمور الأخرى تتعوض.

توقفت زاهية عن البكاء، والتفتت إليّ بنظرة خاطفة.

- صحتي، أنا أعيش على المهدئات منذ قرابة الستة شهور، لقد أفقدني عقلي وغدوت أخاف الناس والخروج من العتمة، أنا امرأة مهزومة من الداخل والخارج، عن أية صحة تتحدث؟

لم أدر كيف سأجيبها، لكنني أحسست بدفء مشاعرها، اقتربت منها وأمسكت بيدها، لم تقاوم بل على العكس استدارت إلي ورمت بنفسها في حضني، أحسست حينها بطاقة غريبة، بأن الصالة التي نجلس بها قد انفصلت عن الكون وغدت مجرة لوحدها، هل أنا أحلم؟ لقد دخلت لصًا قبل قليل، وها أنا في أحضان امرأة لا أعرفها.

- ضمني بشدة، أحس بلهفتك باتجاهي، لا تحاول إخفاء عاطفتك.

ضممتها على صدري وتنشقت رائحتها التي لا تنسى. ثم امتزجنا بقبلة طويلة أرخت زاهية بعدها شعرها، وأسندت رأسها كطفل فوق كتفي.

- لمستك رائعة، ما الذي حلّ بي كل هذه السنين، لقد فقدت قدرتي على الفرح وبتّ امرأة مفرغة من الحب، لقد غدوت عاجزة عن فعل أي شيء، لقد سلبني عبر خداعه كل ما هو جميل، تنتفض زاهية من مجلسها لتحدق مرة أخرى إلى الستارة.

- الحب غدا لعبة في قلوب البعض، أن تخدع من يحبك فتلك هي المصيبة التي لا يمكن تجاوزها، لست نادمة على الأموال ولا العقارات ولا الثروة التي سرقها، إنما ندمي على الحب الذي ضاع في مهب الريح. هل تعرف شعور المرأة التي تهب قلبها لرجل؟ إنه شعور مقدس. شعور يضاهي عمرًا بأكمله، فالمرأة لها قلب واحد ولا يمكن أن يكون في حياتها غير رجل واحد.

حركت يدها هذه المرة وأشارت إلى قلبها، واسترسلت:

هذا القلب الآن ينزف بالحزن والويلات، تحجّر وأصبح كتلة صخرية لا يستفاد منها.

قال لي ذات مرة أنه مسافر لمدة يومين، صدقته، لأكتشف بالصدفة أنه موجود بعمان وأنه في أحضان امرأة أخرى، هل يعقل أن تتبلد مشاعر الإنسان لهذه الدرجة؟ أن يصبح وغدًا بين ليلة وضحاها، كان ينفق على عشيقته من الأموال التي نهبها مني، وعندما واجهته بالحقيقة هددني بالطلاق.

هذا الذي جنيته من محبتي لك يا محمد، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان قلت له يومها، الأمر الذي جعله يطلق ضحكة عالية ويقول: أنت بلهاء يا زوجتي العزيزة.

تطوف برأسي قصة زاهية، أخرج من منزلها قاصدًا لا مكان، أركب سيارتي التي ركنتها بعيدًا عن المنزل، تشدني نسمات المساء

الدافئة إلى الشوارع المؤدية إلى جبل اللويبدة وتتغلغل في رأسي رائحة الياسمين التي تفوح من جنبات الحدائق فأشعر بالسكينة، كانت عمان تستعد للسهر، الشوار ع بدأت تعج بالسيارات، وانتهز الناس الجو الربيعي فخرجوا من بيوتهم يطلبون السمر.

يجلس جمال في مقهى قريب من دوار باريس، أركن سيارتي، وأترجل ماشيًا نحو المقهى، عندما يراني يبتسم ويؤشر بيديه إلى الكرسي الفارغ بجانبه، أحبّ هذا الرجل الحكيم، أتلذذ بكلامه وقصصه الجميلة، كنت أخبِّئ بصدري قصتي مع زاهية، نظر بعيني ثم قال لي: في عينيك كلام، قل لي أهي امرأة؟ فأومأت برأسي، وبدأت أسرد له قصة زاهية ولقائي بها. كان صامتًا طوال حديثي، عندما أكملت، وضع يده فوق ذقنه ثم قال: والله إنّها قصة عجيبة، المهم أنك متأكد أنَّها لن تشي بك، وعندما رددت بالنفي، ربت على كتفي ثم قال: والله إنك ابن حلال، ويسخّر لك الله مثلك.

في طريق عودتي للمنزل، كنت أسمع أغنية لأم كلثوم، حفزتني كلماتها لأنْ أرفع السماعة لأكلم زاهية، ردت بحنو صوتها، قلت لها إنّني أود الاطمئنان على صحتها، كانت كلماتها تقع على مسامعي مثل السحر، أمضينا أكثر من ساعة ونحن نتحدث، شعرت بجمال قلبها وطيبتها وبعذوبة كلماتها.

لم يتركني هارون تلك الليلة، زارني في منامي عدة مرات، أخبرني أنه سيعلن ثورة على الخائنين ولن ينتظر ما سأكتبه عن هذه الثورة، قال

أيضًا إنّ النصر قادم لا محالة، كان يلبس لباسه العسكري وخوذته المرصعة بأحجار كريمة، تحدث عن معاناته في تدريب العامة ليصبحوا جيشًا، سرد لي قصصًا غريبة لم أكتبها بالرواية، استغربت لكنه أكد لي أن الراوي وعلى حذاقته بالكتابة إلا أن هنالك خصوصية عالية للشخوص لا يجوز له التدخل فيها، هي وليدة لحظة حدوثها ولا يستطيع الراوي شرحها.

الدقيقة الحادية عشرة

ما زلت مكبلًا بالموت، هو الخوف بداية وقبل كل صورة أخرى، يُعشْعش في القلب النازف ويتصدَّر المشهد بوضوح.

الخوف مما يختفي وراء الموت هو الذي يصنع هيبة الموت، فالموت بحدّ ذاته لا يهمّ، مجرد فعل استئصال لزمنين مختلفين، الزمن الحالي الذي نعيشه وزمن ما وراء الموت والذي عادة لا ننتقل إليه إلا بحدوث الفعل بحدّ ذاته، البعد الجديد السرمدي، المُتماهي والذي لا نعرف عنه الكثير، الخوف من المجهول، هو الذي يدفع بنا إلى العمل للحياة الأخرى والعمل لها وزيادة رصيد حسناتنا، والامتناع عن الفعل أو افتعال المنع.

دفق الهواء يتناقص مع زفرات تنفسي التي ترتد باتجاه واحد: زفير دون القدرة على الشهيق، عندها تتصاعد حدة الخوف مع توسع فوهة ذاكرتي.

كانت الساعة المعلقة فوق الحائط تشير إلى الرابعة والنصف، لماذا أنظر للساعة وأنا أموت، أبتسم بداخلي، الرابعة والنصف تمامًا، لا يتحرك العقرب بل أسمع صوت حركته فقط: تك، تك، تك.

قيظ الظهيرة ورائحة المحاليل من حولي تزيد من غثياني وتعمّق شعور الموت بصورة مكثفة.

كيف يكون الموت؟ هل هو كما أراه وأحسّه الآن، مسألة زفير منقطع وغثيان وخوف كامن في الأوصال! لا، هو متعلق أيضًا بخيط رفيع وخفي في ضميري الجواني، يرتبط بمنطقة مظلمة في الروح، تعرف أنّها في داخلك لكنّك لا تستطيع تحديد مكانها، والخيط إذ يرتبط بهذه المنطقة هو تمامًا كصندوق أسود يدل على الحقائق الخافية بعد تحطم الطائرة.

المنطقة المعتمة تستنزف الحياة أيضًا، تمتص الوقت وتحيله إلى أغبرة تنتشر من حواليك لتطير بعدها في جوّ مستباح، كلّما ازدادت إعتامًا شدّك الخيط الخفي في اتجاه معاكس، وعندما يكتمل الظلام ينقطع الخيط وتنتقل في الزمان ثم تموت.

ليتني أستطيع رسم ما يكتنف شعوري في هذه اللحظة، سأرسم الموت بلون رمادي مائل للاسوداد، ذلك تمامًا هو اللون المناسب له، حيث إنَّ أي خطأ في تحريك الفرشاة سيزيد اللون قتامة، الرمادي نتاج خطأ الفنان في دمج لم يقصده، فهو إن جاز التعبير مجرد فضلات وتلويث للألوان الزاهية، فكل لون زاهٍ يُساء استخدامه سيكون رماديًا ويكون مصيره مشابهًا للموت.

جسدي غدا كقطعة معدنية تصطك ببعضها البعض، لا أستطيع الحركة ولا الكلام أيضًا، حيث أدرك الأصوات والأفعال من حولي

بدون أدنى قدرة على إبداء أي نوع من الحياة، أنا أخلو من الحياة لكنّني أعيشها، وبين هذا وذاك يتصل بجسدي إحساس بالفقد، وانعدام بماهية وشكل الوقت.

الجسد وعاء يحفّه الوقت بوهن وقلة حيلة، يَعتقُ فتتهّدل فيه السمات، يرتجف فتختلط المشاعر ثم ينقبض القلب، يخاطب العقل حينها بالخلاص، هذا القلب الذي ملّ الوجيب، العقل لا يسمع، غارق في نشوة النسيان، تائه في زمانين مختلفين، فلا هو حاضر ولا هو ماض، فقط يحدق في العدم.

يبدأ الوقت بالانفصال، يظهر في عمق عينيّ كحرف جليدي ضخم جبّار، ينزلق، يتناثر ندفًا باردة فوق جلدي، يبرد جسدي بعدها ويتخثر دمي، أحس به يتحجر من أسفل قدمي صعودًا نحو رأسي.

منذ الأسبوع الأول الذي قبلت فيه عرض جمال أخذت السرقة تستهويني، اصطحبني معه لأكثر من عملية، وبعدها نَمَت معرفتي بجمال وتوطدت، كان هادئ البال، عميقًا بكل ما يقول، لم يكن يحب الحديث طويلًا لكنه إذا تكلم نطق بكلمات موزونة وبمنطق لا يمكن إلا الاستماع إليه.

لقد قضى جمال أكثر من عشرين عامًا يعمل كموظف حكومي، بعد تقاعده أدرك أنَّ الدولة قد غبنته وأن خدمته قد غدت شبحًا يطارده لضيق العيش وقلة المعاش التقاعدي الذي كان يتقاضاه وزيادة

الأسعار والضرائب التي حولت حياته إلى جحيم، وبالرغم من كلّ معارفه وعلاقاته التي بناها أثناء خدمته، إلا أنّه لم يفلح بإيجاد فرصة عمل جيدة، الفرصة الوحيدة التي عرضت عليه هي أن يعمل حارسًا ليليًا، كانت مهمته الرئيسية أن يتأكد من جاهزية أن يكون باب المؤسسة مفتوحًا عند وصول مدير الشركة.

درس جمال المحاسبة في الجامعة الأردنية، وقد كان متفوقًا، تزوج من فتاة أحلامه زميلته عبير، انتظرا أكثر من سنتين لكن عبير لم تحمل، ذهبا إلى الطبيب لمعرفة السبب فتبين أن جمال يعاني من ضعف في الإنجاب، استمرت بعدها حياتهما طبيعية إلى اليوم الذي جاءت فيه أم عبير لزيارتهما، كان الجو ربيعيًا، وكان الجميع فرحًا بقدوم الربيع، اختفت عبير وأمها عبر أروقة البيت، غابتا لأكثر من ساعة، وبعدها ظهرت عبير مكفهرة الوجه، سألها جمال عن السبب لكنها لم تجب وبدأت المشاكل من بعدها.

يتنهد جمال عندما يسرد قصته، يعاود تذكيرنا بأننا كلنا حيوانات منوية بالأصل شئنا أم أبينا، حيوانات لا ترحم وتتسابق لنيل البويضة الوحيدة، حيث من يسبق هو الناجي الوحيد من باقي الحيوانات، قانون الغاب يطبق علينا حتى قبل الخلق، الطبيعة التي تحمي القوي وتتستر عليه وتطرد الضعيف بل وتقتله، نحن المتزلفون لهذه الحياة، حيث نرجح مصالحنا على مصالح الغير وتتغير مشاعرنا حسب المواقف.

الحب الذي انتهى بزواج بدون حمل ما كان له أن يستمر، فقد تغير سلوك عبير وما عادت المرأة الحنون، غدت امرأة تبحث عن طفل لن يأتيَ، أخذ طابع القسوة يطغى على تصرفاتها وكلامها، وبعد أقل من شهرين طلبت الطلاق.

- لا بد من حل لهذا الوضع يا جمال.
- حل، أي وضع؟
- وضع زواجنا، أريد طفلًا.
- ها، تعلمين أن الله لم يخصني بهذه النعمة، اصبري سنجرب طبيبًا آخرَ، يقولون إنَّ أحد الأطباء في جبل الحسين قد نجح في إجراء تلقيح ناجح لإحدى مراجِعاته وقد أنجبت توأمًا.
- تلقيح! كيف سننجب بهذه الطريقة وأنت موظف لا يتجاوز راتبك الثلاثمائة دينار.

يومها أحس جمال بأن الفقر سبب آخر لطلب الطلاق، وأن عبير ستنتهز هذا السبب للانفصال.

- الطلاق هو الحل يا جمال!
- ماذا! الطلاق، ما الذي تتفوهين به؟ أنا أحبك.
- وأنا أحبك أيضًا، لكن الحال أصبح لا يطاق، لقد صبرت كثيرًا ولا أجد حلًا غير الطلاق.

حيوانات منوية بمشاعرنا وجموحنا غير المبرر، لا نستطيع أن نضبط إيقاعًا للحبّ أو الإخلاص، بعدها رضخت لطلب عبير وطلقتها. يقول جمال والحزن يبدو على وجهه جليًّا.

منذ ذلك اليوم ولا تزال تسكنه هذه الحادثة، مأسور بما آلت إليه أموره، ولعل هذه الحادثة هي السبب الذي دعاه لأن يتجه للسرقة، جمال المهندس الذي يأتمر الآن على الملايين عرف بأنه من أهم اللصوص في البلد، وبرغم معرفة السلطات بسرقاته، إلا أنهم لم يوفقوا بضبطه ولا مرة، كان الجميع يطلق عليه اسم الشبح، نظرًا لخفة تحركاته وقدرته على التمويه والهروب في الوقت المناسب بدون ترك أي دليل يسمح بإدانته. كان جمال في نظري كروبن هود الجديد الذي يسرق البخلاء والفاسدين ليعطي المحتاجين.

قلت له مازحًا مرة، لك اسمٌ معروفٌ بات الجميع يعرفونه غير اسمك الحقيقي، لكن متى سيصبح لي أنا اسمٌ أتميز به؟ فضحك جمال حينها، وقال لي: سيكون لديك اسمٌ بالقريب العاجل.

لقد أسس جمال محفلًا خاصًا بالسرقات، أخذ الكثير عن معلميه السابقين لكنه تفوق عليهم، ووضع وصايا لا ينبغي خرقها أو تجاوزها سماها الرفاق فيما بعد بوصايا (اللاءات)، وللسهولة فقد أطلقوا عليها باللات، عشر وصايا من النهي عن أفعال أثناء عملية السرقة.

كان جمال يعقد عدة لقاءات لشرح هذه الوصايا ويعمد إلى تذكيرنا بها في كل جلسة، إنها بمثابة الدستور الذي تستند عليه المهنة برمتها، ولا يعتبر السارق محترفًا إلا بعد إدراك معناها ومعرفة كنهها وهي مترابطة ببعضها بعضًا ولا يجوز الإخلال بأي واحدة منها مهما اقتضى الأمر.

الوقت هو الحاسم في السرقة، قد تفقد حياتك إذا تأخرت عدة ثوانٍ أو حتى إذا تقدمت في الرحيل أو في الدخول، يجب أن يكون اللص ضابط وقت ومايسترو في هندسة الزمن، لذلك كنا نطلق على جمال بالمهندس، وكان الرفاق يتندرون بأنه ينافس أينشتاين بنسبية الوقت، كان جمال هو المهندس الذي علمنا مهنة السرقة، كان عطوفًا، يقسم الأدوار وفق مهارات الجماعة، ويعطي النصائح كأنه حكيم يعلم تلاميذه.

في أول اجتماع لي في محفل اللات، كنت لا أزال غُرًا بالسرقة، أرشدني جمال إلى طريق الاحتراف، قال لي إنَّ الحرفية موهبة لا يتمتع بها الجميع وإنَّ المحفل لا يقبل أعضاء جددًا إلا بتوصية من أحد أعضاء المحفل، كنت محظوظا بمعرفتي الشخصية برئيس المحفل، والذي أوصى بقبولي كعضو في المحفل.

كانت الأضواء خافتة، ويجلس الجميع حول طاولة مستديرة، يتوسط جمال الحلقة، ويدير النقاش أحد الأعضاء الذي جلس بجانب

جمال، قام بدوره جمال بالتعريف عني وإعطاء لمحة عن مهاراتي في الموسيقى والأدب وحبي الشديد لمهنة السرقة، كان الأعضاء يسألون جمال من دون أن يلتفتوا نحوي، بعضهم سأل عن عمري، وضعي الاجتماعي، وعن هواياتي، اهتماماتي، علاقاتي النسوية، أحسست بشعور ساخر من عدد الأسئلة وتوجيهها بشكل مباشر لجمال الذي لاحظ استهجاني وهمس لي بأن المعرف على العضو الجديد وحسب تقاليد المحفل هو المسؤول عن الإجابة عن كل هذه الأسئلة، وعند انتهاء الاجتماع قام المعلم بمصافحتي تعبيرًا عن المباركة بقبولي في المحفل، ثم قام أحدهم وقرأ الوصايا العشر بصوت جهوري والتي تبدأ بلا الناهية وبعدها حرف التاء:

الوصية الأولى: لا تسرف في الوقت، فالوقت هو رفيقك وعدوك في آن واحد.

الوصية الثانية: لا تسرق زملاءَك، وهي جريمة كبرى قد تؤدي إلى حرق أسهمك لدى كل اللصوص في البلد.

الوصية الثالثة: لا تستكن وتجبن، ففي الجبن يكمن الهلاك.

الوصية الرابعة: لا تستبعد عاطفتك عند السرقة وكن عطوفًا بالأطفال وكبار السن والنساء.

الوصية الخامسة: لا تستفز من البنادق المحشوة والسكاكين بعد هربك وابق هادئًا أينما حللت.

الوصية السادسة: لا تستنفر المارة ولا الجيران وكن طبيعيًا، فالرجل الطبيعي لا يثير الشبهة.

الوصية السابعة: لا تستهن بهدوء المكان، فقد يكون كمينًا لك.

الوصية الثامنة: لا تستخدم قوتك إلا عند الضرورة، وكن مسالمًا في كلّ حالاتك.

الوصية التاسعة: لا تستهوِك المغريات حول ضالتك، واحذر النساء الجميلات.

الوصية العاشرة: لا تستكبر على نعم الله، وارض بالرزق الذي قسم لك.

بعد أن أنهينا الاجتماع، كان عليَّ أن أرافق المعلم في إحدى السرقات، تسلقنا سورًا علته زجاجات مكسورة، وبالرغم من تجاوز عمر جمال الخمسين عامًا إلا أنه كان رشيقًا، كان يقفز بين البيوت بخفة ومهارة، وبحكم عدم علمي الكافي بكيفية السرقة فقد تولى جمال تعليمي.

كان يقول: تعلّم يا عادل أن تكون خفيفًا بروحك قبل جسدك، وأن تطلق كل مجسّات جسدك لأن تتنبأ بالقادم، لدى الإنسان نقاط رصد في كافة أنحاء جسده، نقاط خفية لا يمكن تشغيلها إلا بالهدوء والتدرب على تنشيطها، فإن اشتغلت عليها فإنك ستصبح خفيًا وخفيفًا.

دخلنا سوية من شباك الغرفة، كان جمال يؤشر بيديه كي ينبهني للحركة، لا أعرف كيف كانت لديه القدرة أن يكون هادئًا وهو في وسط العملية، كان يعالج إحدى الخزائن الخشبية التي فتحت بسهولة بين يديه الماهرتين، ثم بدت في قلبها خزنة حديدية كبيرة، ابتسم جمال عندها وربت فوق الخزنة بحنو، تنهد ثم تناول كرسيًّا وجلس عليه، أخرج المفاتيح والمعدات من حقيبته وبدأ بفتح الخزنة، ولم تمض غير خمس دقائق حتى انفتحت.

لقد كانت مملوءة بالجواهر النفيسة والنقود والملفات والعديد من صفائح الذهب، أخرجنا النقود والجواهر وتركنا الذهب، وعندما استفسرت منه تذكرت الوصية العاشرة من اللات التي كان يهتم بها جمال عن غيرها، فالرضا مهم وسبائك الذهب قد تعيق حركتنا.

توجهنا بعدها إلى بيت جمال، أفرغنا غنائمنا ثم دعاني إلى سهرة في فندق الماريوت، احتفلنا حتى ساعة متأخرة من الليل، كانت الخمرة تنعش نفسيته وتحيله إلى شاعر يقول القصائد، كنت أحب شخصيته المخمورة أكثر من شخصيته الجدية أثناء السرقات.

جلسنا تلك الليلة نسكب الخمرة، الكأس تلو الأخرى، وفي نهاية السهرة رفض أن نغادر إلى منزله قبل أن نزور وسط البلد، بالرغم من الطعام الفاخر الذي كنا نتناوله إلا أنه كان يتغنى بصحن الحمص في مطعم هاشم، تركنا اللحوم والسلطات كما هي في الفندق ثم اتجهنا إلى

مطعم هاشم، أكلنا بنهم ثم مشينا حتى الجامع الحسيني، كان المؤذن ينادي لصلاة الفجر، أحسست بحزن في عينيه.

سألته: هل يغريك صوت الأذان، ما رأيك أن نتوضأ ونصلي!

أعجبته الفكرة لكنه استدرك:

- على رسلك؟ ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى..

- هل تشعر بفقدان عقلك وأن جسدك غير مسيطر عليه.

- لا.

- إذن أنت لست سكران.

دخلنا إلى المسجد، توضأنا والتحقنا بصف المصلين، لكن عند الركعة الثانية أجهش جمال بالبكاء، أحسست بالذنب لاقتراحي الصلاة، كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها المعلم يبكي.

خرجنا من المسجد، لم نتبادل أي حديث، كان جمال ساهمًا طوال الوقت، لقد بدا غريبًا ليلتها، أوصلته إلى منزله، ثم عدت قافلًا لمنزلي وقد طلع النهار.

نمت يومها حتى منتصف النهار، أفقت على صوت اتصال هاتفي، كانت هناء على الخط بصوتها الحنون:

- أما زلت نائمًا، إننا ننتظرك على الغداء، لا تتأخر، وأقفلت الخط.

عندما وصلت لبيت جمال قال لي وأنا واقف بالباب: لا تدخل بدون العود، فطفقت عائدًا إلى السيارة وأحضرته، دخلت الصالة، كانت هناء تجلس بجانبه، ويبدو عليه حالة من السكر.

هناء الشاوي، فتاة في الثلاثينيات من عمرها، كانت إحدى طالباتي في المعهد، تعرف إليها جمال ذات زيارة لي في المعهد، ونشأت بينهما علاقة مودة من يومها، كان من الصعب أن أزور جمال ولا أجد عنده هناء في منزله، هناء فتاة في غاية الجمال، أجبرها أخوها في سن الخامسة عشرة أن تتحجب، وبعد دخولها الجامعة درست الفلسفة، تبحرت في علومها وتخرجت في ثلاث سنوات فقط، عملت في مجال التدريس كمعلمة وأحبت الموسيقى، اختارت آلة العود، كانت من أفضل طلابي الذين أتقنوا المقامات والنوتات في مدة قصيرة، ولكنها اختفت لمدة تزيد عن الشهرين. ظهرت بعدها بدون حجاب، الجميع استغرب ذلك حينها إلا أنا فقد حلمت هناء أن تعيش وتلبس كما يحلو لها لا كما يحلو للغير.

تدحرج الوقت في شقة جمال بشكل سلس بحيث إنّني نسيت مهمتي في مراقبة بيت شاكر العاقد أو كما يلقبونه بالغرنود.

أملت برأسي نحو أذن جمال وهمست له أن العميل القادم سيكون بمثابة صفقة العمر، ابتسم جمال وشدّ يدي نحوه فرحًا، سألني عن اسم العميل وعندما أخبرته بأنه شاكر العاقد امتقع وجهه، واتسعت عيناه، لم أعرف سببًا لردة فعله المفاجئة.

أمسكت هناء العود، غنّت لعبد الوهاب أغنية جفنه علم الغزل، كانت تنظر لعيني وتشدو بصوتها الجميل، شعرها كان مقصوصًا لمستوى أذنيها، جملتها بأقراط بلون زهري، رقبتها بيضاء ويعلو شفتها العليا شامة تزيد جمالها، هي المرة الأولى التي أتأمل جمالها، لاحظ جمال ذلك فدفعني بيده بشكل محبب، غنينا سوية حتى الغروب.

كان جمال ساهمًا طوال السهرة، ينظر بين الفينة والأخرى إليّ وكأنه يريد أن يخبرني شيئًا، بعد أن غادرت هناء، توجهت إليه بسؤالي عن شاكر العاقد، أفزعه السؤال مرة أخرى وتمتم بلغة متلعثمة لم أفهمها، أعدت السؤال عليه عدة مرات قبل أن يجيب:

- دعك منه، هذا الرجل يُعد من أخطر العملاء، ابتعد عنه قدر الإمكان ولا تحاول الاقتراب من بيته، ثم، لديك بيوت عمان كلها، لم اخترت شاكر بالذات؟

هي المرة الأولى التي أحسّ بأن المعلم يكذب، بدا ذلك من جلجلة صوته وارتباك حروفه، حاول تغيير مجرى الكلام، طلب مني أن أسكب له كأسًا جديدة، وأن أكمل العزف، وليضفي جانبًا من المرح على كلامه فقد طلب مني أنْ أغني لصباح فخري، شعرت بضيق شديد من كلامه المبطن وارتباكه المفاجئ، قررت المغادرة بعدها واعتذرت منه بأنني أشعر بالإرهاق، وعندما ودعني جمال التقت عيوننا فأيقنت أنَّ وراء هذا الأمر سرًا دفينًا.

الدقيقة العاشرة

هذه الذاكرة، لا جدوى منها، تحولت في الآونة الأخيرة إلى خردة متهالكة يقتات عليها الصدأ، غيمةٌ تمزقها الريح فينزّ منها رشح نزير من المطر لا يروي ظمًأ ولا ينبت زهرة.

أقول لها: كلما تفيأت ظل شجرة، خشيت أن تسقط إحدى ثمارها فوق رأسي. غدت الأشجار بالنسبة لي كائنات متآمرة مع قوانين الجاذبية والذاكرة المُتهدلة.

تضحك وتدير رأسها نحو الجدار الذي تصدع، حيث عُلّقت فوقه إحدى اللوحات، كانت لوحةً صغيرةً يطير فيها عصفوران بشكل متعاكس، لطالما تأملت زاهية تلك اللوحة، لربما أرادت أن تسألني عن سرّ الفراق الذي يدعو العصفورَين إلى الفرار باتجاهات متعاكسة.

- هي طلقة صيّاد يا زاهية، تلك التي دعتهما للطيران بهذا الشكل.

تبتسم ولا تجيب.

- أعلم أنك لم تسأليني، لكنّني وددت شرحها لك.

يعلو الصمت حينها.

يجلدني ذاك الصمت بسوط الشوق فيعيد لي شذرات من ذاكرتي الممزقة.

كانت تلبس كنزة شتوية حينها، ملمس الصوف يحدث لسعات مفاجئة، أبعد يدي عن معصمها، وتلتقي عيوننا، ثم نضحك، أجل، لا نبتسم إنما نضحك، تقول لي: كيف لا تشعر بالبرد في بيتك هذا، أنا أشعر بالبرد، دفئني.

هنالك علاقة وطيدة وعكسية بين انخفاض الحرارة وطلب الحنان، الدفء يجلب الحنان، والحنان نصف الحبّ، أما النصف الآخر فهي الذكريات التي كانت تسيل من رأسي بفحش لا يعرف الرحمة.

- كانت هذه اللوحة معلقة في الجهة المقابلة، لماذا نقلتها إلى هنا، في السابق كانت أجمل.

تقول زاهية ولا أتذكر لمَ ومتى نقلت اللوحة من مكانها، أغمض عيني وأبتسم بوجهها.

في الآونة الأخيرة، أخذ نزيف الذكريات يتفاقم في رأسي، صورٌ كنت قد علقتها في زواياه أخذت تختفي، تتلاشى تاركة خلفها تجويفًا أبلهَ، وحول التجويف فراغ غير مبرر، كأن لصًا اعتاد التسلّل إلى تجاويف عقلي وسلب هذه الصور بعناية فائقة، الصورة تلو الأخرى.

صور طفولتي كانت أولى المفقودات، أحداث كنت أحفظها عن ظهر قلب، أول يوم في المدرسة، سقوطي من فوق دابة جارنا وتحطم

يدي اليسرى، لعبة القطار التي جلبها لي والدي من وسط البلد، عصفوري الفضي الذي رسمته في كل مكان ارتدته، قصصي الصغيرة وفرحتي الأولى، كلها تبخرت وغابت في ظروف غامضة.

أنزلق في بحيرة رخوة من الضياع، يتدفأ اللصوص على جذوة ما تبقى لدي من ذكريات، يوقدون النار، يقيمون حفلًا ويتغوطون فأستيقظ فزعًا.

كنت أسرق أمتعة الناس، والناس بدورها تسرق ذكرياتي.

لماذا يتغير طعم يومي ويصبح مائلًا لطعم اللحم الفاسد حين تغيب عني الذكريات، أبتلع كمية لا يستهان بها من الحبوب المهدئة، حتى الموسيقى تتزاحم نغماتها فتخرج عن سلمها وتسقط.

تغادر زاهية فيسحقني الوقت داخل غرفتي، تمرّ الساعات بعقارب سامة فوق جلدي، أخرج لأكسر جمود يومي، أهيم في شوارع عمان باحثًا عن لهو جديد، أعرج إلى بيت أحد الأصدقاء، لكن ذاكرتي تخونني وأتوه عن مكان سكناه، لقد باتت ذاكرتي سرابًا يتلاشى كلَّما احتجت إليها، أحاول تذكر رقم منزله أو الشارع المؤدي إليه، لكنني أفشل في ذلك، ذاكرتي أصبحت مزاجية بشكل صرف، قد تكون في أفضل حالاتها فأتذكر قصة حدثت معي منذ عشرين عامًا وفجأة تتصلب الشرايين داخل دماغي وتتكسر الأحداث فتفزع الذكريات ثم تتلاشى.

في طريق عودتي، يصادفني بيت شاكر العاقد في منطقة الرابية، هذا الرجل الذي صنعته آلة الإعلام وأصبح أسطورة، النائب الذي اشترى الكثير من ذمم الناخبين بشكل علني، فقد أغراهم ببضع دنانير، هَبَّ الجميع للتصويت له وتصدّر قائمة الناجحين بالانتخابات النيابية، شاكر العاقد تاجر اللحوم الذي أطعم الناس عدة مرات لحومًا فاسدة وضبط متلبسًا لكنه وبقدرة قادر وجد بريئًا بل وازدهرت تجارته ثم أصبح رئيسًا للنواب، وبعد انتهاء مدة مجلس النواب تم تعيينه في مجلس الأعيان.

في عمّان ترى العجائب، والعاقد إحداها، فكلما زادت ثروته زاد جشعه، وأصبح أقوى وتجمع الناس من حوله، كان معروفًا عنه بأنه المحسن الذي يتصدق كثيرًا، الرجل المعجزة الذي استطاع وبرغم معرفة الجميع بخطورته على المجتمع أنْ يصبح ذا شأن.

وددت أن أرى بيته عن كثب، اقتربت، كانت الحراسة في حدّها الأدنى، تذكرت كلام جمال عن الحراسة المكثفة فوجدت العكس، لماذا أصرّ جمال أن يثنيني عن سرقة بيته، وأين الجيش الذي يحرس بيته كما زعم.

هممت بالرحيل، غير أن سيارة تشبه سيارة جمال قد اصطفت أمام منزل العاقد، إنَّها سيارته بالفعل، وها هو جمال يجلس من وراء المقود، يتلفت من خلفه ولا يترجل من السيارة، بقي هكذا قرابة العشر

دقائق، كان يتحدث عبر هاتفه، أنهى مكالمته ثم ترجل من سيارته باتجاه بيت الغرنود، لا أصدق ما أراه، ما علاقة جمال بشاكر العاقد، ولماذا يزوره في بيته، ولماذا حاول أن يبعدني عن سرقة هذا الرجل، أسئلة كثيرة خطرت ببالي بدون إجابة.

الدقيقة التاسعة

الذكريات التي تضيع لا تعود! وإن عادت فإنها تكون متجعدة ورخوة، أستطيع تمييز بعض الأسماء والأماكن لكني أحتاج إلى عدة دقائق لترميم الصدع الذي أصابني جراء ضياعها، لا مكان للكُرهِ في غمرة النسيان الذي يصيب ذاكرتي، جميع الناس متساوون في المحبة.

ها أنا أخرج للعالم المر، عالم تملأه الغيوم السوداء وسلبية العيش، ذاكرتي تصير حديدًا وتنبهني بأن العالم الحقيقي هو العالم الذي لا يشعر ناسه بالفرح، وإن شعروا به فهو غير دائم، يزول في غضون دقائق معدودة، تلك النشوة التي يضحكون بعدها ثم يستعيذون بالخالق من شرها، فهم لم يعتادوا على البهجة، خلقوا وسط حروب دامية وتربوا على أخبار الاقتتال والفقد، أدمنوا الحزن منذ الصغر، رضعوا الكشرة وفطموا على عدم الرضا.

في الآونة الأخيرة أخذ الأمر يتفاقم، الصداع لا يفارق تلابيب رأسي، يشتد لساعة ثم يختفي، يتمازج طعم مُرّ وشعور بحالة اكتئاب ودوران في الرأس يبعث على التقيؤ.

كلما شكوت لجمال من هذه الحالة يضحك بشدة ثم يقول: هذه أعراض الحمل، أنصحك بمراجعة طبيب نسائية بشكل سريع.

أتلمس جدار رأسي باحثًا عن الثقب الذي تتسرب منه الذكريات، رأسي الذي تخدر، لقد همد وتيبس، ما أجمل أن تفقد إحساسك بالوقت، أن تستبدل الخفة به.

تقف زاهية بجانبي، هذه الزهرة ما تزال بكامل زينتها، تملأ جفنيها الدموع، لقد ظهرت التجاعيد فوق عينيها، تقترب مني علها تفلح بنظرة أو اهتمام، أشيح بوجهي عنها، كيف لي أن أشرح لها أني آسف لما حدث، بأي وجه سأقابلهـــا، وهي التي تبــكي كلما أخرج في مهمة جديدة.

تقول: عادل، هل أنت بخير؟ فلا أجيب.

ذاكرتي تسرق مني وبشكل علني يا زاهية، كيف ستفهم أن من يسرق ذاكرتي لص ماهر لن يتوقف عن سلبي حتى آخر شذرة ذاكرة لدي، سيكون حينها عقلي مُفرغًا كطبل أجوف وأكون مثل شجرة وحيدة وسط صحراء واسعة.

- صداع يأكل نصف رأسي ويحيل النصف الآخر إلى عجين من الآلام.

- حبيبي، يجب أن ترحم عقلك، وتُمسّد فوق رأسي بحنان.

تُقرب شفتيها ثم تطبع قبلة فوق فمي:

- يجب أن نذهب إلى الطبيب للكشف عن حالتك، لا بد من وجود علاج ما للصداع الذي يصيبك، هل رأيت وجهك بالمرآة،

حبيبي أرجوك، سأعطيك عنوان الدكتور صالح المرزوق، إنه استشاري متخصص.

- سأذهب قريبًا، هي مجرد وعكة طارئة وستزول، ربما هو برد الشتاء، كوني مطمئنة، سأكون بخير.

في شارع الخالدي الذي يقع في جبل عمّان، يكثر الأطباء، تزدحم العمارات بمئات الأطباء والمختبرات ومراكز العلاج الطبيعي، ينحشر الجميع بشارع ضيق لا يكفي لاصطفاف سيارتين على الطريق، تتنوع تخصصات الأطباء، يعرضون بضاعتهم على يافطات بخطوط مكبرة، ويبرزون الجامعات الأجنبية التي تخرجوا فيها.

الطب في عمّان غدا موضة كمثل باقي الموضات، قد تزور عشرة أطباء لنفس المرض وتجد تشخيصًا مختلفًا جديدًا في كل عيادة طبيب، بعض الأطباء يتعمد طلب العديد من صور الأشعة وتحليل البول والدم وغيرها، وبعضهم ارتأى أن يفتتح مختبرًا خاصًا له بجانب عيادته وآخـــرون افتتحوا سلسلة من الصيدليـــــات ذات الطـــابع الحضاري والتي تقبل الدفع بالبطاقات الائتمانية.

عيادة الطبيب صالح المرزوق في الطابق الرابع، تطالعك في فناء العيادة سكرتيرة جميلة الوجه، تنشغل في الردّ على المكالمات وتسجيل بطاقات المرضى الذين ينتظرون فوق كراسٍ جلدية، الجميع منشغل في

انتظار موعده، لا يسألني أحد عن شكواي فأتوجه إلى حيث تجلس الفتاة.

- هل أستطيع رؤية الطبيب؟ أهمس للفتاة.

- هل لديك موعد؟

- لا، لكني أشعر بألم شديد في رأسي.

- انتظر قليلًا، ما اسمك؟

- عادل مصطفى.

- كم تبلغ من العمر؟

- 44 عامًا.

- هل لديك حساسية من أي دواء؟

- لا.

- هل معك أي صور رنين أو أشعة سابقة؟

- نعم.

تتناول الفتاة الصور من يدي ثم تدلف إلى الغرفة المجاورة التي يبدو أنها مكتب الطبيب، تترنح بقامتها المكتنزة، تغيب لتنادي على اسم المريض التالي، أتابع من مجلسي رتل المرضى الذين لا يبدو عليهم المرض، كل مريض منهم يختزن أسرارًا من الحزن، ولكل مريض وجع

خاص وقصة مختلفة، في أحيان كثيرة يتبادل بعض المرضى كلمات قليلة قد تكون مقدمة إلى حديث طويل لإضاعة الوقت قبل الدخول للطبيب، بعضهم يمســك هـــاتفه ويقلب في صفحاته بشكل يدعو للضجر.

الوقت كائن ينمو وفقًا لظروف المكان، ينمو كالنباتات التي تمتد فوق جدران البيوت، تلك الدبقة الهائلة تتشبَّث بعنقي وتلفُّ أغصانها فوق أوصالي، الدقائق تستطيل وتتمدَّد، على الأرجح أن الطبيب ذو بال هادئ، فالمريض الذي يدخل غرفته لا يخرجها إلا وانقضت أكثر من نصف ساعة، وددت أكثر من مرة مغادرة العيادة، ولكني كنت أتذكر الأزمة التي تكبدت السير بها للوصول إلى العيادة، ناهيك عن الوقت الذي مضى في الانتظار.

يخرج الطبيب من عيادته، يبدو قصير القامة، يتجعد شعره الأبيض والموشى بالأسود ويغطي الجزء الخلفي من رأسه، أصلع من مقدمة رأسه وله شاربان، وجهه مبتسم، يتحدث قليلًا مع السكرتيرة التي تنادي على اسمي لدخول العيادة.

يستقبلني الطبيب، يرحب بي ويدخلني، ينشغل قليلًا بقراءة الملف ورؤية التقارير، يرفع شفته السفلى فوق العليا، تلك حركة لا أحبها، أعرف أن من يفعلها واقع في حيرة، إذن هل حالتي صعبة؟ أسأل

الطبيب ولا يجيب، يتأمل صورة الرنين مرة أخرى ويضعها على لوح مضاء بجانبه، يلبس نظارته ويُحدق بعناية، ثم يشيح بنظره باتجاهي:

- منذ متى وأنت على هذه الحال؟

- أي حال أيها الحكيم!

- أقصد بماذا تحسّ؟ هل تشعر بدوخة ورغبة بالتقيؤ وصداع وفقدان مؤقت للذاكرة؟

- تمامًا، هذا ما يحدث لي.

يسهم الطبيب بعدها، يترنح الوقت كسيف في عيادة الطبيب ليصيب مني مقتلًا، يطول صمت الطبيب فتتسارع حركة السيف ويضرب في كل أنحاء جسدي، أقول منفعلًا: ممَّ أشكو أيها الطبيب؟

- تلزمني بعض الصور والفحوصات الجديدة لأستطيع تشخيصك بشكل وافٍ، أرجو تزويدي بها كما كتبتها لك على هذه الورقة، ثم يناولني الورقة مبتسمًا:

- سلامتك أخ عادل.

أخرج من العيادة، أحس بأبخرة تتصاعد من صدري ودم يصعد إلى رأسي فيزيد من حدة الصداع، أعرج إلى أول مختبر أصادفه لعمل الفحوصات والصور التي طلبها الطبيب، تستغرق العملية ساعة

ونصف لإنهاء هذه المهمة بعدها أهرع إلى عيادة الطبيب الذي يدخلني للعيادة وما زالت ابتسامته ترتسم فوق شفتيه.

يعيد الطبيب عملية النظر في الصور، يقرأ نتائج المختبر ثم يتجه ببصره نحوي، نظرته كطعنة خنجر، تتجه نحو عينيّ مباشرة، يقلب الأوراق من أمامه ثم يكتب قليلًا:

- ينبغي أن تراقب نفسك جيدًا، وتعتني بصحتك، تشير الصور والفحوصات إلى بداية ورم ضئيل وغير واضح في الدماغ، عادة لا يكون خطيرًا، لن نعرف ذلك إلا اذا اشتدت عليك الآلام.

الدقيقة الثامنة

أهيم في الشوارع، أشعر برغبة في التقيؤ، لم أصدق كلمة مما قاله الطبيب، أهز رأسي لعلي أستيقظ من الحلم وأدرك أن كلام الطبيب مجرد وهم عشته في أضغاث أحلامي كما هي الأحلام التي تخص هارون، كيف لهذه الحياة أن تعاملني بهذه الطريقة؟ من سمح لهذا المرض أن يتفشى داخل رأسي دون علمي؟

يرن هاتفي، اسم زاهية يتوسط شاشة الهاتف.

- ألو!

- ألو، حبيبي، أين أنت؟ لقد قلقت عليك كثيرًا، حدثني بماذا أخبرك الطبيب؟

تقول زاهية بتنهد.

- سأحدثك عندما أراك، الأخبار ليست جيدة حبيبتي.

شعرت بالنسائم الباردة تخترق رأسي، كنت مشتت البال وغير قادر على التفكير أو التركيز، ركبت سيارتي ومشيت في شوارع عمان، ثم ركنت بجانب حانة في منطقة عبدون، لا أدري لماذا ساقتني الأقدار لأدلف إلى الحانة، كانت روائح الدخان تملأ المكان، تتصاعد فوق

رؤوس السكارى فتزيدهم سُكرًا، جلست إلى أول طاولة قابلتها، أشرت إلى النادل أن يسكب لي كأسًا من العرق، اتصلت بجمال الذي أجاب متململًا، قال لي أن صوتي يبدو كصوت ميت يتحدث من القبر وعندما أخبرته بما قاله لي الطبيب صمت قليلًا ثم أنبأني أنه بطريقه إلي.

وصل جمال في أقل من نصف ساعة، احتضنني بشدة ثم جلس قبالتي، شربنا العديد من الكؤوس، كان جمال كعادته مرحًا، حاول ترطيب الموقف وعدم الحديث عن مرضي، قال إنَّها غمة وتزول، ونصحني بأن أسافر لبلد ما للابتعاد قليلًا عن الضغوط النفسية التي أعاني منها، حدثته عن حزني وغضبي من عجزي، تذكرت حينها أبي وظلم عمي، ولما أفاضت ذاكرتي بموت أمي، توقفت عن الشرب وتوجهت بسؤالي عن الغرنود، وعلاقته به، ضحك جمال وربت فوق كتفي ثم قال:

عادل، ما سأخبرك به سرّ بيننا، وأرجو أن تتفهم موقفي.

- قل يا معلم، أرجوك.
- شاكر العاقد هو زوج أختي.
- ماذا، هل تمزح معي.
- لا، لقد حاولت إخفاء الأمر عنك مرارًا وأن أثنيك عن سرقة بيته لهذا السبب.

- الآن فهمت، وأنا لا ألومك، ومنذ هذه اللحظة سأنسى موضوعه بالكامل، لكن اسمح لي الآن، يجب أن أغادر لأنهي مهمة صغيرة يتوجب علي إتمامها.

- أي مهمة يا عادل!

- سأخبرك قريبًا، انتظرني فقط نصف ساعة.

أمام المفاجأة التي أصابت جمال، خرجت من البار متجهًا إلى سيارتي، واتخذت وجهتي إلى الجهة الشرقية من وادي عبدون حيث قصر عمي.

كانت الشياطين تملأ الفضاء من حولي، تتزاحم مكتظة مثل النقاط السوداء على ورق أبيض، تهمس لبعضها وأسمع أصوات ضحكاتها وحركاتها التي لا تنتهي، أخرجت المسدس وأغمدته في جيبي، اقتربت من بيت عمي وركنت السيارة بعيدًا عن السور، كانت الأضواء خافتة في بيته وباب السور مفتوحًا، تراءى لي أبي في تلك اللحظة، كان ينظر إلي بعينين ذابلتين، لعله أراد أن يخبرني شيئًا، انتشرت نسائم جميلة من جهته، نظر إلى عيني وأومأ بيده.

كانت عائلة عمي تجتمع في الصالة المُطلة على باحة القصر، لمحت عمي من وراء الزجاج الذي زينت به الشرفة وشفّ عن رأسه الأصلع الذي يهتز فوق جسده، رفعت يدي، صوبت فوهة المسدس نحو رأسه ثم أطلقت النار.

هوى عمي على الأرض، وهرع أبناؤه في صخب، ودارت جلبة في البيت وارتفع صراخ. كنت هادئ الأعصاب، طمأنينة أحاطتني وتنفست بشهيق عميق، اتجهت إلى سيارتي وقدت عائدًا إلى الحانة التي ينتظرني بها جمال.

كنت أقود السيارة مُنتشيًا، الحمل الثقيل من فوق صدري تلاشى وشعور بالخفة يداعب رأسي الذي زادته الخمرة ثقلًا، كان جمال لا يزال جالسًا، عندما رآني انفرجت أساريره وضحك، فضحكت بدوري، كان يُعلّق ساخرًا من خروجي المفاجئ.

- هل أنهيت اجتماع الرئاسة الطارئ أيها البطل؟

- نعم، أنهيته بنجاح، ولا تعلم مدى سروري، أنا فرح لأول مرة منذ مدة طويلة، لنشرب نخب النجاحات.

- الله، كنت أمزح معك يا رجل، بربك قل لي ما القصة؟

- لا عليك، إنما هو واجب قديم كان لزامًا علي تأديته وقد قمت به.

- بهذه السرعة، لا شك أنه واجب سريع وقريب.

كانت أصوات سيارات الإسعاف والشرطة المنطلقة بالاتجاه المؤدي إلى بيت عمي كفيلة بأن ينظر إلي جمال بعين الشك، تأملني قليلًا واختفت البسمة من فوق شفتيه.

- عادل، ما الذي حدث؟ هل فعلتها.

- أجل وبكل روح هادئة، وأنا نادم أنني تأخرت في ذلك.

- يا للهول، هل قتلت عمك؟ يهمس لي وقد اتسعت عيناه.

- تمامًا، بطلقة واحدة رخيصة، ثمنها ثلاثون قرشًا، ولا أريد بعد موته أي شيء من الأموال التي سرقها، ثلاثون قرشًا كانت كفيلة بالإطاحة بجشعه الذي دمر حياة عائلة بأكملها، فليهنأ بها نهبه، أنا قتلته يا جمال بعد أن قتل أمي وأبي وهجّر أختي، قتلته لأنه قتل فيّ الإحساس والأمل، وأود أن أقتله مرةً أخرى ومرتَين وألف مرة.

امتقع وجه جمال، طلب لنا زجاجة عرق ثانية.

- طيب وماذا ستفعل الآن يا شاطر؟ هل ستنتظر الشرطة ليعتقلوك.

- لا، لم يلاحظني أحد، لقد ركنت سيارتي بعيدًا عن المنزل وعندما أطلقت النار كان الجميع منشغلًا.

- ها، أين المسدس؟

- لقد رميت به على قارعة الطريق في بطن الوادي المحاذي لبيت عمي.

عندها ضرب عادل جبينه بيده.

- يا رجل، هل تركت بصماتك عليه، هل أنت أبله؟

- ها، لم تخطر هذه ببالي.

- يا لك من أخرق، قم بنا لنجلبه.

كان جمال منزعجًا إلى حدّ كبير، ركبنا سيارة جمال واتجهنا نحو المكان الذي رميت به المسدس، كانت الأجواء مضطربة، والسيارات تزدحم في الطريق الرئيسي، على قارعة الطريق توقف جمال، نزلت من المركبة وبحثت عن المسدس لكني لم أجده، نزل جمال وبدأ بالبحث معي، أمضينا أكثر من ساعة في البحث، لكن الظلمة حالت دون تمكننا من إيجاده، كان جمال يشتمني ويشتم البلد والمدارس والجامعات وكل ما يمشي على الأرض، لقد أمسى كل الليل يكيل لي الشتائم على فعلتي التي ستفضح أمري.

عند عودتنا، نصحني بأن أكون طبيعيًا وأن أتصرف كالمعتاد، مشيت إلى حيث ركنت سيارتي عائدًا إلى منزلي، كانت منطقة عبدون تعج بسيارات الشرطة، توقفت عند أحد الباعة وسألته عن الأمر، فأخبرني أن الشيخ رشيد عمدة الجبل قد أردي قتيلًا إثر رصاصة اخترقت رأسه.

الدقيقة السابعة

هل يعقل أن نتجدد في يوم ما بعد موتنا؟ أن أكون في حلة جديدة بدون آلام أو حزن، عندها لن يهمني كيف ينتهي الكون لأنني سأكون في جسد حمامة بيضاء تبحث عن سعادتها في التقاط ندى المطر فوق زهر الحدائق، سيكون عُمري مُخلدًا لا نهاية له، فتحديد العمر نكتة سخيفة، بحيث غدونا نكرس الخوف في قلوبنا من الخوف بقصر العمر، بضع سنوات عجاف وبعدها ينزلك سائق القطار إلى محطة مجهولة، بضع سنوات لا تكفي أن يستريح بها الإنسان، تقطع به الحبال أحيانا في منتصف الطريق، فلا هو فاز بالدنيا ولا هو عارف بآخرته.

العمر ذو الوقت الشحيح الذي نناضل من أجله مُجرد تجربة، الحياة الثانية هي التي سيكون فيها الوقت متاحًا لكي تعيش كما تشاء، تلك الحياة التي لن تنذر بانتهاء مفعولها عند سنّ معينة، قد تكون مئات السنين أو آلافًا منها، عندها سأقسمها كما يحلو لي لا كما يحلو لهم، ربما مائة سنة كاملة سأكون محاربًا لا يخاف، مئة أخرى سأعيشها كمزارع يقطف المحاصيل ويعيش مع دوابه في الجبال، أخرى سأكون بها لصًّا محترفًا كما أنا الآن، وأخرى سأقسمها بالتساوي لعدة شخصيات

أحببتها في حياتي، هكذا ينبغي أن تكون الحياة، أبدية وبدون وقت أو ميعاد للانتهاء.

الشجرة التي تلتصق بشباك الغرفة تعرف ألمي، يتغير لونها وتصفرّ أوراقها، تتصاعد أغصانها المبنى غير عابئة بعذابات المرضى الذين تكتظ بهم غرف المستشفى، تتلصص عبر النافذة على أوجاع الكثيرين الذين غرّرت بهم الحياة وقررت أن تتركهم مع الألم، صرخات تتردد في ردهات الممر المفضي لغرفتي، أصوات بكاء لنساء، ربما هو مريض قرر الانسحاب من هذه الحياة، لماذا يبكيه الآخرون، ألا يجدر بهم الفرح لتخلّصه من الألم، يصيبني هذا الشعور القاتل كلما مات أحدهم في الطابق، المرض هو العقاب الذي تحدثت عنه الأديان، وأن تكون روحك معلقة بين الحياة والموت فذلك الحساب بعينه.

الولادة لا تختلف عن الموت، يغادر الجنين بطن أمه الذي أمضى فيه تسعة شهور، يعيش من خلالها في عالمه الوحيد، لا يعرف غير رائحة أمه، عالم متكامل مفعم بالحياة، موته يبدأ منذ خروجه من الرحم، الزمن ينعكس ويولد من جديد في حياة منسلخة عن عالمه الصغير الذي أمضى بها شهور تكونه، تلك تمامًا مشابهة لحالة الموت، يقضي الإنسان حياته مهما امتدت ليخرج منها إلى حياة جديدة بزمن جديد، دائمًا هنالك نقاط مفصلية تنقله إلى عالم مختلف، ما نعرفه الآن مجرد عالمين فقط، لا نعرف كم من العوالم ينتقل بها الإنسان في المستقبل.

تدخل أختي تغريد باكية، تحمل معها باقة من الورود وبجانبها يقف زوجها المتأفف، تضع أختي الورد جانبًا ثم تنهار فوق صدري باكية، تبلل دموعها وجهي غير المحلوق، تنتحب وتشد على صدري، لقد تغيرت منذ آخر مرة رأيتها، تجاعيد انتشرت فوق محياها وشعرها قد أخذ بالتساقط، لعلها أيضًا قد فقدت الكثير من وزنها.

ينشغل زوجها بالنظر إلى الشجرة من خلف النافذة ويتذمر أنها تحجب المنظر الخارجي، يجلس على الكرسي بجانب السرير، ينظر إلي بعينين يملؤهما الاشمئزاز، يحرك حاجبيه إلى أختي داعيًا لها بالمغادرة، تخرج تغريد التي عرفت أنني في عداد الموتى.

عندما أتممت العامين في محفل اللات قرر الأعضاء بالإجماع بأني جاهز لأن أنفذ عملياتي بدون مساعدة جمال، كان هذا بمثابة يوم تخرجي من المحفل، وقد أوكلت إليّ سرقة أحد الشخصيات المهمة في عمّان، وهذه العملية ستكون بمثابة الامتحان الأول لي للترقية.

كان اسم العميل سعد البيزق، المليونير الذي صنع ثروته من دماء أطفال العراق وصل إلى الأردن في عام 2004، تتبعت سيرته حينما كان تاجرًا جشعًا يقطن في بغداد، لقد كان من التجار الذين زودوا الجيش الأمريكي بالتجهيزات والمعدات، قالوا عنه الكثير، البعض كان يصفه بالمخادع وبعضهم وصفه بالذئب الذي خان وطنه، آخرون اعتبروا أن ما قام به مجرد تجارة لكسب رزقه بعيدًا عن الحرب التي

أسقطت بغداد وجرفت البلاد إلى حرب لا هوادة فيها. ولم يتوقف عند هذا الحد، بل إنه استمر بدعم المليشيات العسكرية بالأسلحة، كان آخرها إمداده لجماعات (داعش) بالسيارات المصفحة والأسلحة والعتاد.

يخرج سعد من بيته صباحًا الساعة السادسة والنصف، تنتظره سيارة المرسيدس السوداء، يفتح له السائق الباب، ويدخل بجثته الضخمة وتنطلق السيارة إلى شركته التي تقع في الشميساني. كل يوم كان هذا المشهد يتكرر من أمامي وأنا أترقب أن أنفذ خطتي لسرقة بيته.

بيته ضخم، تحيط به أسوار عالية، وتعتني بحديقته إحدى الشركات المتخصصة، حاولت أكثر من مرة أن أتقرب من عامل الحديقة لكنه كان من النوع العدائي، جاف الطباع ولا يرد المجاملة، تقابلت مع سعد مرة على باب بيته، أوعز للسائق بالتوقف، أنزل زجاج الشباك، سألني عن مبتغاي فأجبته أنني أود العناية بمزرعته، لم يعرني اهتمامًا، أشاح بنظرة إلى الجهة الأخرى ثم قال: لا، لدينا عامل يعتني بها ثم انطلقت مركبته.

زوجته الشقراء والتي عادة ما تغادر البيت بعد ساعة من مغادرته، تلبس ملابس الرياضة، تستقل سيارتها ثم تسير مسرعة إلى نادي الرياضة خاصتها.

أطفاله الثلاثة تهتم بهم العاملة الفلبينية التي توصلهم لباب الحافلة كل يوم في نفس التوقيت، كانت أعمارهم بين الخامسة والرابعة عشرة، بنتان وولد، الابنة الكبرى تبدو عليها أمارات الخيلاء من مشيتها، تتأخر في ظهورها الصباحي، ينتظرها سائق الحافلة أحيانًا لمدة تزيد عن العشر دقائق، أما الولد الأصغر فيكون عادة أول الواصلين، تقفز الخادمة بين الحافلة والبيت حتى تتأكد من أنَّ الأطفال الثلاثة في أمان داخل الحافلة لترجع إلى البيت بذات النشاط.

كنت وقبل أية عملية أبذل جهدًا مضاعفًا لمعرفة حجم ثروة العميل، أطلق على جميع من أسرقهم هذا الاسم، أحب مناداتهم باسم عصري، أراقب العميل وأتتبع تحركاته، قد يبدو هذا الأمر سهلًا لكن الحقيقة أنّ الإعداد للعملية أصعب من العملية ذاتها، حيث التفاصيل التي قد تأخذ مددًا متفاوتة وفقًا لعدة أسباب؛ نوع العميل، وعدد الذين يقطنون المنزل، نظام الحماية المتبع، وغيرها.

كنت أتفرغ بالكامل لدراسة الموقع بعناية، ليس هذا فحسب بل بدراسة البيوت المجاورة وعادات قاطنيها، قد تنقضي عدة شهور في مرحلة التحضير والدراسة، هذه هي أبجديات العملية كما تعلمناها من المعلم جمال.

تقتضي الظروف أحيانا انتحال بعض الشخصيات للكشف الحسي على منزل العميل، أذكر أنني قمت بانتحال شخصية عامل نظافة مرة،

لربما كانت من أصعب الشخصيات التي جربتها، انتهزت فترة غياب عامل النظافة المناوب، حينها اضطررت أن أجمع كل قمامة الحارة المجاورة لمنزل العميل ليبدو الأمر طبيعيًّا، وعملًا بالوصية السادسة من اللَاءاتْ، فقد بدوت حقًا كعامل نظافة، بل إن كل أصحاب المنازل أشادوا بمستوى النظافة التي ازدهت بها المنطقة آنذاك.

في مرات أخرى كنت بائعًا متجولًا، أحمل حقيبة مملوءة بأدوات منزلية، أدوج بين البيوت لأصل منزل العميل، أمر على البيوت يومًا بعد يوم، قد ينهرني البعض بأن لا أرجع مرة أخرى، لكني أدعي النسيان، أعتذر بشدة من صاحب المنزل أو صاحبته، الهدف الأساسي هو أن أحدد مدى الحماية للمنزل سواء من داخل المنزل أو من خارجه، ومعرفة العلاقة التي تربط العميل بجيرانه ومدى انتباههم وتواجدهم.

الطريقة الناجعة في التخفي والتي استخدمتها في الفترة الماضية هي أن أصبح مزارعًا، أحمل عدة الزراعة، وأطرق الأبواب المحاذية لمنزل العميل، وبمجرد قبول أحدهم أن أعتني بحديقته يصبح بيته محطة مراقبة لي، وخلال عملي تكون فرصة ذهبية لمعرفة كافة الأخبار عن العميل.

اضطررت إلى تعلم الزراعة، كيفية الحفر، إزالة الأعشاب، تشذيب الأشجار، والسقاية ورش المبيدات، بذلت جهدًا مضاعفًا في تثقيف

نفسي، كنت أقرأ الكتب، أتابع أفلامًا وثائقية عن المحاصيل والأشجار بكافة أنواعها، لقد تحولت في أقل من شهر إلى مزارع يفهم كيف تسمّد التربة، وكيف تستنبت الزهور، ومواعيد قطف الثمار، لقد دعتني السرقة إلى تعلم عدة حرف كانت الزراعة من أهمها.

زوجة البيزق رشيقة، اسمها دعاء، عرفت ذلك بينما كنت أقوم بأعمال الزراعة للبيت المطل على منزلهم مباشرة، كان الجار أبو محمود دائم الحديث عنها، يُسميها الملاك، ويعترف بأنها امرأة بكل نساء المنطقة، يميل رأسه ليقول:

- دعاء محامية، والدها كان اسمه عبد المجيد الكسب، أكبر تاجر للسلاح في بغداد، لقد غدا أسطورة في زمن الحرب، فقد كان يمول الجنود الأمريكان والكتائب العراقية بالسلاح في آن واحد.

أدعي عدم الاهتمام وأنشغل بتشذيب إحدى الأشجار، ثم أقتنص السؤال.

- وهل لزوجها علاقة بذلك؟

ويضحك أبو محمود عند سماعه لسؤالي بل إنه يقهقه:

- سعد البيزق يا أخانا، هو الوريث الشرعي لعبد المجيد، لقد زوجه ابنته دعاء، سعد كان اليد اليمنى لعبد المجيد التي يبطش

بها أعداءه، وهو خازن أسراره والعقل المدبر لكل صفقات البيع، لولا مساندته له لما نمت تجارته، لقد تاجروا بدم أطفال العراق وشيوخه كي يصنعوا أموالًا لا تأكلها النيران، ما تراه من شركات وأسهم هو غسيل أموال لتمويه دوران الثروة. كل هذه الثروات دخلت بعد الحرب إلى الأردن وفتحت فيها شركات نظيفة ومولات فخمة ونسِي الناس القصص القديمة وأصبح أصحاب هذه الأموال رجال مال لهم احترامهم وقدرهم بل وتحميهم الدولة باستثماراتهم التي تتجاوز مئات الملايين.

الدقيقة السادسة

أكتب على حائط صفحتي: المرض يأكل رأسي، أحس بألم يداهم هذا الجسد ويحيله إلى أشلاء، يعجب أصدقاء (الفيسبوك) بما كتبت، تنهال عليّ تعليقاتهم كقبل العيد، أكثر الكلمات كانت رائع، رائع أنت بمرضك ووجعك.

الناس تتألم معك افتراضيًا، تقول إحداهن: حتى وجعك جميل، كيف يكون الوجع جميل يا بلهاء؟ يترحّم أحدهم على روحك، آخر ينصحك بدعاء المرض، والعديد منهم يصفون لك أدوية مجربة، أعشاب تخطئ في تهجئة أسمائها، يختلف بعض المتدينين حول طبيعة الألم وأنه ابتلاء من الله.

عالم لا طعم له، سقيم، أحمق، تلقيت حينها مئات من الرسائل، دون أن يتكلف أحدهم أن يزورني أو يتصل ليقول لي سلامتك، سحقًا لهذا العالم.

العالم الافتراضي وباء أصاب الناس وحوّلهم إلى آلات تتبادل الكلام بلغة الإشارة، جرّدهم من الأحاسيس والمشاعر، الفرح صار صورة يدّعون فيها الزهو، والحزن كما الأمر غدا فيديوهات خالية من

العطف ذاته، ذهول ورياء ونفاق تعجّ به صفحات التواصل الاجتماعي، تغيير الثقافة والميل للكسل وعدم إجهاد العقل هي ما يميز هذه المرحلة، أن تؤدي طقوس الاستعراض في كل شاردة وواردة بحياتك، أن تصير عبدًا للتكنولوجيا وخادمًا مطيعًا لا يعرف الانفكاك من سجنه.

لو يعود زمن الرسائل الورقية، كانت لذة الانتظار لا تضاهي سرعة الردود للرسائل الإلكترونية الْمُفزعة والْمُفرغة من الحب ومن شغف الرائحة واللذة، كان العاشقون يكتبون رسائلهم على ورق مخصص للحب ويعطرونها بحروف حبهم، كل حرف يوازي قبلة، وكل كلمة تنتظر حضن موعود، وكل جملة بمثابة موعد غرامي بكامل أبهته، تلك المشاعر التي كانت تُسطّر فوق الورق هي أقرب للقلب وما يزيدها ألقًا وتوهجًا هو الوقت المنتظر للإجابة، فكلّما زاد الانتظار زادت اللهفة وكلّما زادت اللهفة زاد الشوق والتشويق.

الرسالة التكنولوجية غدت لكل الناس، لا يتميز بها العاشق عن غيره، رسائل بلهاء مُتكررة تخلو من خط اليد وارتجافها عند ذكر اسم الحبيب، وتعاريج الورق التي قد تضم دموعًا سُكبت وقت الكتابة، اختلفت الرسائل وما عادت مبهجة في وقتنا هذا.

حتى الحبّ أصابه خلل جسيم، تَفشّت البرودة في أوصاله وضاعت ملامحه، هو الوقت أيضًا من باستطاعته تشويه الأشياء

وتغييرها أو تجميلها، فالماضي أجمل، والحاضر عند مقارنته بالماضي وربطه بالمستقبل لهو ضرب من تاريخ أو تنبؤ، والماضي يكتنف ذكريات، فإن ضاعت الذاكرة واختلط حابلها بنابلها فتلك هي المصيبة، عندها يتحول فاقد الذكريات إلى مجرد رقم، رقم لا يستفاد من وجوده لأنه بدون ذكريات.

أكتب رسالة قصيرة:

"حبيبتي، كل عام وأنت أجمل، كل عام وأنت بخير". يَرتجّ الجهاز بعد ثوانٍ برسالة ساخنة: "وأنت بخير حبيبي".. أنا على باب المعهد أركن السيارة، لدي خبر جميل لك، أحبك".

أرد برسالة عجلى: أنا قادم، انتظريني في الخارج، سأترك سيارتي هنا ونذهب إلى أحد البارات القريبة للاحتفال بعيد ميلادك وتخبريني بالخبر الجميل.

أقفز من مقعدي.

أطفئ ضوء الغرفة وألتقط العود وحقيبتي، لكن هناء تكون قد وصلت:

- عادل، هل أنت مغادر؟

- أجل، لدي موعد طارئ.

- لكن، ألا تذكر أنه وقت درس العود!

- أذكر، لكنني مضطر للخروج لرؤية زاهية، سامحيني، ما رأيك أن نؤجله للغد، غدًا لا يوجد عندي أية حصص، سأتفرغ لك بالكامل. هل تودين الانضمام إلينا لاحقًا أنت وجمال، إنه عيد ميلاد زاهية اليوم، اعرضي عليه الفكرة وبلغيني إذا أردتما ذلك.

أهرع تحت المطر حيث تقف سيارة زاهية، وننطلق إلى جبل عمان حيث تنتظرنا ليلة انتظرناها أكثر من عام، المطر يشتد، وتأخذنا شوارع عمان إلى حاراتها حيث تتراص البيوت بجانب بعضها، أعرج بالسيارة إلى بار قريب من الدوار الأول، أطلب كأسًا من البيرة وتطلب زاهية كأس ويسكي.

القاعة تمتلئ برواد البار في مثل هذا الوقت، أضواء البار خافتة وبعد كأس من البيرة، قررت أن أبدأ بالويسكي، صدر زاهية يبدو نافرًا هذه الليلة، تلبس فستانًا أحمر، يفيض وجهها بحمرة، تسري النشوة في أدمغتنا فأقرب الكرسي حيث تجلس، أشم رائحتها التي تنتشر في فضاء المكان.

أقتنص الموقف وأمد يدي لصدرها، أمسك حلمتها وأمسد عليها، تنتفض زاهية وتقول هامسة: "فضحتنا ولك، بطل شقاوة".

الشهوة ترعش دماغي فأحس بأن دمي يغلي، شهوتي تتمدد فأشعر بأن قلبي سيتوقف، هواء شهيقي مضمخ برائحة صدرها الذي فاح من أثر مشاكستي، هي المرأة التي تعبر عن شهوتها بالرائحة والنظرة،

ولما كانت زاهية تشعر بالخجل فقد أشاحت بنظرها إلى الحائط، لكن الرائحة تفضح مرادها.

- ألا تود سماع الخبر؟

- أود بعد أن ألثم شفتيك.

فتمد شفتيها وأختطف قبلة على عجل.

- لقد طلقني، أنا الآن حرة، وسعيدة بهذا الخبر الذي جاءني في عيد ميلادي.

- ياه، أخيرًا، يا له من خبر جميل. كل عام وأنت حبيبتي.

- كل عام ونحن أحبة حبيبي.

- قلبي ينبض بك، هل تودين أن نذهب إلى شقتي، أحتاجك يا فتاتي، الآن.

- اصبر قليلًا، ما زالت الليلة بأولها.

يرن هاتفي، يضحك جمـــال بصوت عالٍ ويغني لزاهية لعيد ميلادها، تنضم إليه هناء، فتلتقط الجهاز وتدعوهم إلى المجيء إلى البار، ولا تمضي غير عشر دقائق حتى يطل جمال وبجانبه هناء.

يأتي النادل فأطلب زجاجة ويسكي ثم أوعز لهم بإحضار كعكة عيد الميلاد ونطفئ الشموع، نتحلق حول زاهية لالتقاط صورة جماعية

وتلتصق يدي بيد زاهية التي تحرك جسدها في دعوة مباشرة لي أن أزيد في الالتصاق.

نغادر البار في ساعة متأخرة، نتمايل غير مدركين حالة السكر التي وصلنا لها، زاهية تضحك بشكل هيستيري، وأنا أحاول فيما تبقى لدي من جهد أن أركز في الطريق، تدور الشوارع وتلتف حول رقبتي وتهزأ مني الجسور فتمد ألسنتها، تتشبث زاهية بصدري كالطفل الصغير، تهلوس بكلمات لا أفهمها، كان الوصول إلى منزلي معجزة حقيقية، أسندت زاهية على كتفي وحملتها إلى السرير، وسقطت كما أنا بجانبها مغشيًا علي.

لعلَّ تلك الليلة كانت من أقسى الليالي التي أنذرت عن حرب بيني وبين هارون، غدا غير مسيطر عليه في المدة الأخيرة، فبالرغم من حرقي للأوراق التي كتبتها في الرواية، وطردي لأفكارها وشخوصها من عقلي، إلا أن هارون ظهر وفي يده قلم وعدة أوراق، كانت روايتي التي أحرقتها، كان يحرك الأوراق، ثم يكتب على صفحة بيضاء بخط واضح، رجوته أن يكفّ عن العبث، كان هارون يكتب الأحداث لكنني أستطيع رؤيتها، كابوس يكتنف جنباته القتل والمرض ثم الموت مما يجعلني أفزع من نومي لأجد زاهية تقف فوق رأسي محاولة إيقاظي.

الدقيقة الخامسة

كنا صغارًا، نلعب بألعاب نصنعها ولا نشتريها، ألعاب قد تبدو سخيفة لو عرضت عليكم في هذه اللحظة، لكنها كانت تشكل جزءًا كبيرًا من مسيرة حياتنا كأطفال، إحدى تلك الألعاب كانت كُرَة القماش، نصنع الكُرَة من القماش الزائد في البيوت، قد ينقص القماش لدينا، فنضطر لسرقته، أجل كنا نسرقه من بيوت الجيران، كنا خمسة أطفال، تملأنا الحياة، نتسلل إلى بيت جارنا، ننتهز فرصة انشغاله بتصليح سيارته، ونسرق أية قطعة قماش نصادفها.

كانت السرقات ذات طابع طفولي، تقتصر على سرقة الخضروات والفواكه من بساتين الجيران، لكن طعمها كان لذيذًا، تصيبنا بانتشاء دائم، نتربص ونخطط، ننفذ الخطة، وقد لا يحالفنا الحظ يومًا وننكشف، تنهال بعدها الشكاوى على رؤوس آبائنا وأمهاتنا الذين يكيلون لنا العقاب، بمنعنا من الخروج من المنزل، لكن الوقت كفيل بنسيانهم والعودة من جديد لهذه السرقات.

أذكر أننا خططنا لسرقة الدكانة المحاذية لبيتنا، كنا خمسة أطفال نسعى للحصول على علب الشوكولاتة، لم يسعفنا الحظ عدة مرات

لمداهمة المكان، كان الحاج يعقوب العيسى يفتح دكانته في الصباح الباكر، شيخ طاعن في السنّ، يُتوج عينيه حاجبان بلون أبيض، ملابسه لا تتغير في كل الفصول، فروة سوداء وشماغ أحمر يكلله عقال أسود، وجهه تعلوه التجاعيد التي حفرت بعمق فيه فبدا مثل تمثال عاث به الزمن فغير معالمه الأصلية، يمتاز الشيخ يعقوب ببخله الذي لا يخفى على أحد، فكان يعد القروش عدة مرات، يعيد الكرّة في كل مرة نشتري منه الحلويات، قد تستغرق عملية الشراء منه عدة دقائق قبل أن يطلق سراحك، وفي حال وجود العديد من الزبائن سيطول بك الوقت لتأخذ مرادك.

الحاج يعقوب يحرص على إقفال دكانته بأقفال عدة، باب الدكان من خشب وله نافذة زجاجية صغيرة تلفها قضبان من حديد، كانت الخطة أن نكسر الزجاج ونمد أيادينا الصغيرة لنيل الحلوى.

في ليلة تنفيذ الخطة اجتمعنا سوية وقسمنا المهمات، قاسم سيكون المراقب العام على الشارع الرئيسي، ومحمد سيكسر النافذة، ومرتضى سيراقب الجهة الخلفية للدكان، وسعد سيرافقني في تنفيذ السرقة، سأعترف أنني كنت أجرأ الجميع، فقد تخلف محمد عن كسر النافذة فاضطررت أن أكسرها بنفسي، مددت يدي فلم تطالعني أية أكياس من الحلوى، كانت فقط مسامير بارزة تخز وتجرح، وبمجرد إخراجي ليدي تجرحت يدي من الزجاج المكسور.

يومها لم أعرف طريقة لوقف النزيف الذي ملأ الإسفلت، انسحب سعد ومحمد ومرتضى وبقي قاسم بجانبي، لم يتوقف نزيف الدم يومها، تسرب الخوف إلى داخلي وهرعت إلى البيت حيث استقبلتني أمي بوجه مصفر، حاولت أمي إيقاف النزيف بإضافة البن وزيت الزيتون لكن الجرح كان غائرًا، لم يسعف أمي الوقت لتسألني عن السبب، كان همي الوحيد أن لا تعرف السبب، وخوفي الكبير أن يشي أصدقائي المنسحبون بجريمتنا، عندما بكت أمي أدركت أن الأمر جسيم وأن الجرح قد قطع أحد شراييني.

كان أبي هادئا عند وصوله، نظر إلى يدي وأول سؤال كان عن سبب الجرح، كذبت وقلت أنني جرحت من زجاج رمي في الشارع، استغرب أبي وبدت قسمات وجهه غير مصدق لي، اصطحبني إلى المشفى حيث تم تقطيب الجرح وحظيت بلفافات بيضاء فوق يدي لعدة أيام قبل أن أكتشف أن الحاج يعقوب قد نصب لنا فخًا لن ننساه ما حيينا.

ثنائية غريبة تلك التي تجمع حالتك النفسية بالوقت، أتسلق الأشجار سعيدًا فيقصر الوقت، أنتشي في اللعب مع الفراشات والطيور فيتبخر الوقت كغيمة صيفية، وبالبعد المظلم الآخر يطول، ويصبح دبقًا وغير قابلٍ للانفصال، يجلسني أبي أمامه، يُعلمني جدول الضرب فأعيد من خلفه بتأنٍّ، يفرغ حينها الكون بُطْئه ويشتد الوقت سعيرًا وتختلط الأرقام وتمتزج في فوضى عارمة.

أقول لأبي: لماذا تضرب الأعداد بعضها البعض، فيضحك وينقطع عندها حبل ذاكرتي الرفيع وتضيع صور أبي في دهاليز مجهولة من عقلي.

كانت سرقة بيت سعد البيزق بمثابة التتويج لعامي، لقد تأكدت من احتفاظه بجزء كبير من ثروته في منزله، فسعد لا يمرّ على البنك كثيرًا ودائمًا يحمل الحقيبة السوداء بيده، كان دخول منزله بمثابة مخاطرة كبيرة بوجود نظام المراقبة والحماية الذي طوق البيت بالكاميرات التي تصور كلّ شاردة وواردة وثلّة من الكلاب البوليسية التي لا يمكن تصور مهاجمتها لأحد.

الأسوار التي تحيط بيت البيزق تحتم على من يريد تسلقها استخدام الحبال والأربطة، كانت السماء تكتسي بلون رمادي أخفى معالم القمر فحجب الرؤية، اقتربتُ بسيارتي من السور الضخم، أوقفتها وهممت بالنزول لبدء العملية، لكن هاتفي رنَّ، كان جمال على الخط، قال بصوت متهجد: يجب أن توقف العملية يا عادل حالًا، وصلتنا أخبار بأنَّ الأمن قد عرف عن العملية وهو ينتظرك في داخل بيت البيزق للإيقاع بك.

ألغيت العملية، ثم غادرت متجهًا إلى بيتي، عندما وصلت كان اثنان من رجال الأمن منتظَرين عند باب شقتي، وجه لي أحدهم عدة أسئلة.

- هل أنت عادل مصطفى؟

- أجل.

- نود أن ترافقنا إلى مركز الشرطة.

- ما الأمر يا سادة، هل أنا متهم بشيء؟

- سنخبرك عند وصولنا للمركز.

قام أحدهم بإمساكي وتقييدي بأغلال حديدية وإدخالي إلى سيارة الشرطة، لم أقاومهم بل شعرت برغبة حقيقية بالغناء، أن أعزف لحنًا شجيًا يصل شدوه إلى السماء، أن أرقص بكامل جوارحي وأحتفل بهذه الليلة.

عند وصولي إلى مركز الأمن، قام أحد الضباط بتوجيه عدة أسئلة لي عن مكان تواجدي خلال الأيام الماضية وعلاقتي بعمي، لم أشأ أن أطيل قصة التحقيق، قلت له: إن كنت تسأل ذلك لاعتقادك بأنني أنا الذي قتلت عمي فقد أصبت، أنا الذي قتلته، وغير نادم على ذلك، أغلق ملفك أيها الضابط ولننْهِ هذا الجدل، عندها فغر فاه وطلب من الجندي إيداعي داخل زنزانة صغيرة لحين ترحيلي إلى المحكمة صباحًا.

تلك الليلة كانت استثنائية، كان هارون يطوف من حولي طوال الوقت بصمت، بدت شخصيته جلية من أمامي، كنت قلقًا من الأحداث القادمة، اقترب هارون مني، رمقني بابتسامة خبيثة، كنت

أشعر بأنه تحول في هذه اللحظة إلى الروائي الذي يكتب قصتي، تحول دوري فجأة إلى ضحية في رواية لا أعرف كيف سينهيها هارون، لم يتكلم معي ليلتها بل ترك النظرات تشرح نفسها.

الدقيقة الرابعة

المحكمة واسعة، يجلس بجانب القاضي مساعدان له فوق المنصة التي علت فوق مستوى الجالسين، كنت مُكبلًا بأغلال الوقت البطيء، ويقف بجانبي أحد أفراد الأمن، القاعة تعجّ بعدد كبير من الناس لم أتعرف إلا على بعضهم، جمال يطل برأسه من بين الحضور مؤشرًا لي، وها هم أبناء عمي يتوعدونني بنظراتهم من وراء القضبان الحديدية، نساء وشيوخ لا أعرفهم كانوا أيضًا.

الكل ينتظر قرار القاضي الذي يطيل النظر في الأوراق التي تناثرت من أمامه، يميل رأسه نحو مساعديه، ثم يدعو محامي النيابة العامة للحديث، وبعدها يتمتم القاضي ببعض كلمات، ويتناول الميكرفون من أمامه:

- عادل مصطفى علي، لقد تمَّ اعتقالك بتهمة القتل مع سبق الإصرار والترصد، لقد وجدت المحكمة بالأدلة القاطعة وباعترافك بأنك مذنب بتهمة القتل للمدعو رشيد علي، وقد كان الدليل بصماتك التي وجدت على أداة الجريمة.

يطول الوقت، بل إنه يمتد غير عابئ بصخب المحكمة، يرفع القاضي حاجبيه ثم يعدّل نظارتيه ثم يتحرك القاضي برأسه نحو

مساعده ويهمس له ببضع كلمات ويستقيم مرة أخرى بجلسته وينظر إلي مباشرة:

- عادل مصطفى، هل أنت مذنب؟

- مذنب أيها القاضي، أجل، مذنب لأني لم أقتل الفساد الذي استشرى بنا منذ مدة طويلة، مذنب أيضًا لأني حاولت استرجاع ملك أبي الذي سرقه عمي، مذنب وشعور بالاطمئنان يعتريني على ما فعلت.

- حكمت المحكمة عليك بالسجن المؤبد.

يقول القاضي ثم يرفع الجلسة وتنتهي الجلبة.

يفتض بعدها الحاضرون، ويأتي أحد رجال الأمن ليرشدني إلى سيارة السجن التي تصطف في نهاية الممر الطويل، سيارة السجن تحمل قفصًا على شكل صندوق مغلق من جهاته الأربع، تسير بنا في صحراء موغلة بقيظ حزيران الزاخر باللزوجة وروائح العرق والدخان المنبعث من أفواه المشاركين لي بهذه الزنزانة المتحركة.

مع كلّ حركة للسيارة يهتز رأسي، ألمٌ يربض في حناياه فيزداد مع ارتجاج السيارة فوق المطبات التي تزخر بها الطريق، يتهيأ رتل من الحراس أمام بوابة السجن، بوابته ضخمة وصدئه ولم يهتموا بطلائها، يداي مكبلتان بحديد يجفّ اللحم.

ينزل المساجين بترتيب وسط صرخات الحراس بالانضباط، يعلق أحدهم بشكل ساخر فتنهال عليه ضربات من الجنود، ألتزم الصمت وأنزل إلى الساحة التي يجتمع بها ما يزيد عن عشرين سجينًا لتبدأ محاضرة عن ضوابط السجن، وليتمَّ بعدها توزيعنا على الزنازين، أحسّ بضيق يربض فوق حنايا صدري، أودّ لو تسعفني روحي وأبكي، أريد دموعًا تحرّرني من أشجار الحزن التي نبتت في محراب دمي.

السجن مرتع للقهر وللحظات الموحشة، زاخر بالهموم والتذمر، لبنات بنائه تضيق باتجاهي، تحتشد رائحة نتنة بأنفي فأشعر بحاجة للتقيؤ وبرغبة بالبكاء، لكن عينيَّ مصمتة، ويخالج قلبي نبض واهن يزيد من سرعة الدقات لحظة ثم يتوقف فجأة دون إبطاء، في تلك اللحظة تغيب الصور من ذهني، تعتمر رأسي غشاوة محببة، أستدير لباقي السجناء من حولي، هل لاحظوا توقف قلبي، هل فُضح أمري، وإذا متّ في السجن هل سيحترم جسدي وأوارى كأي كائن بشري، أم أنني سأرمى كجثة متعفنة.

منذ اليوم الأول الذي وصلت فيه إلى داخل أسوار السجن أحسست بموت دفين يكسو جسدي، ورائحة نتنة لا تفارقني، رائحة عطب ما، ربما أن اختفاء الأمل أوجد هذه الرائحة، شكوت للحارس عن الرائحة لكنَّه نفى أن تكون موجودة، كانت الزنزانة تضم سريرين

منفصلين، يجلس فوق أحدهما رجل بلحية بيضاء، سألته عن أمر الرائحة، فضحك وفرك لحيته البيضاء ثم قال:

- أي رائحة يا بني! لا أشم أي شيء.

- رائحة نتنة أيها العم، ستخنقني هذه الرائحة، أيعقل أن لا أحد غيري يشمها؟

كان الرجل ينظر إليَّ بحنوّ، ارتسمت على وجهه الابتسامة، بيده مسبحة طويلة، تتدلّى من بين أصابعه كشبكة صيد فارغة، يُمعن النظر بحباتها التي يتفنَّن بفرزها في كل دورة ثم يقول:

- يلزم السجين في أول أيام سجنه كثير من الصبر، فدولاب الوقت يثقل القلب أولًا ثم ينحدر نحو باقي الجسد فتحس بخدر وبلاهة وعلى الأرجح أنَّ هذه الرائحة ستنتهي قريبًا بعد أن تتعود على المكان الجديد، بالمناسبة اسمي عطاالله، ما اسمك أنت؟

- عادل، أنا عادل.

ساحة السجن تعجّ بالسجناء الذين فقدت الحياة أية صلة بهم، يتكورون على أنفسهم وتفوح من بينهم رائحة عرق ويرتدون ملابس لم تغسل من مدة طويلة.

كنت دائم التأمل، لو أعدت الحساب يومها وتبعت حدسي ما كنت اليوم هنا، وحيدًا بين طيات العبرات التي يطلقها السجناء كلّما

هبَّت عليهم نسائم المساء الشجي من خلف قضبان السجن، تلك القضبان التي أصبحت ملساء من أثر لمسها.

في اليوم التالي، كان الشيخ عطالله يجلس في الباحة الرئيسية وحيدًا، سلمت عليه بحرارة، ابتسم لي ومسد فوق لحيته ودعاني للجلوس معه، كان لا يزال ممسكًا بمسبحته، تصطدم أشعة الشمس بوجهه البشوش فيظهر لي كأنه ملاك نُزّل من السماء، تنتشر من فوق وجهه تجاعيد تغطي الجبين بشكل مبالغ فيه، تزداد تعقيدًا وغورًا عند محجر العينين لتتصل بطريقة مؤذية مع أنفه الذي استطال على شارب كثّ ولحية بيضاء، كانت تبدو عليه الطمأنينة والهدوء، ابتسم عندما التقت عيوننا:

- أهلا يا عادل، هل ارتحت؟ لقد كانت حالتك مزرية في الليلة الماضية، هل اختفت الرائحة من أنفك؟

- أجل لقد اختفت، لكنني لم أستوعب بعد سبب وجودي في هذا المكان، كأنَّني في حلم.

- هذه المرحلة نسميها مرحلة الثقل؟

- الثقل، أي ثقل!

- هي مرحلة تصيب القاطن الجديد في السجن، تبدأ بثقل الرائحة ثم الشعور بكتم النفس ووجع في القلب، من يترك نفسه لهذه

الحالة فإنها تلجم لسانه وعقله في آن واحد وتصيبه بحالة من الاكتئاب المزمن.

أحسست لوهلة أنَّ الرجل يشعر بما أحسّ به، فالوجع انتشر في جسدي منذ اليوم الأول.

- لا، أنا لا أشعر بهذا كلّه، ما يقلقني هو غياب العدل في هذه الأرض.

ضحك الشيخ عطاالله وكأنه عرف أنني أكذب في هذه اللحظة.

- العدل مسألة نسبية يا بني، وما لاحظته في المحكمة مجرد تطبيق لنظرية حاول أصحابها منذ الخليقة أن يتموا العدل من خلالها، لكنها فشلت وزادت الأمر سوءًا، ما ستجده في هذا السجن أيضًا ينافي الطبيعة التي تقضي بالحرية للجميع، فحياتك هنا هي صنيعة السجّان الذي يتفنن بتشويهها في كل لحظة، إنها عمله الدؤوب الذي لا يمل منه، تخريب ما بنته الطبيعة وصبّ الغضب في داخلك لتكره الحياة وتتخلى عمّا أنت عليه، وبغض النظر عن ذنبك الذي أدخلك السجن فأنت أمام السجّان مجرم ينبغي التعامل معك كحيوان لا بد من كبح جماح فوضويته.

أسنان الشيخ بيضاء، ويبدو عند الابتسام كقطعة ثلج تتفسخ فيها نتف الجليد، لا يفتأ يهزّ حبات المسبحة متمتمًا بلغة هامسة لا أفهمها، يرمي ببصره نحو السماء كلما وجهت له سؤالًا.

- كم مدة حبسك؟

- أنا مسجون منذ عشرة أعوام، وقبل أن تسألني عن سبب سجني أود أن أكشفه لك لأريح فضولك، لقد كنت معارضًا سياسيًا.

- ها، وما هي التهمة؟

- إنها ليست تهمة، لقد كانت حقيقة، وهي حقيقة أفتخر بها ولم أخبئها يومًا حتى أمام القاضي الذي حكم علي بثلاثة أحكام متواصلة لاعترافي بأنني كنت أفعل الصواب، وهي إسقاط الحكومة والدعوة إلى تشكيل حكومة إنقاذ للبلاد والعباد من شرور المسؤولين وإنهاء اتفاقية السلام مع العدو.

- ما الذي تقوله؟ هل تقصد أنك قمت بانقلاب؟

- أبدًا، كنت ولا أزال من مناهضي الحكم القائم على المركزية، وأنا أدعو في جميع مقالاتي إلى إشراك الشعب في صنع القرارات ودحر العدو عن طريق التسلح وعدم النكوص وراء معاهدة سلام بالية مع إسرائيل، ينبغي لكي نخرج من القمقم أن نُسلّح الشعب وأن تكون الخدمة العسكرية إجبارية، وأن يدرك القادة في الدولة أن القوة هي التي ستنهي قوة اليهود.

- مقالاتك، هل أنت كاتب؟

- أنا بالأصل طبيب أعصاب متخصص، لكنني أحب الكتابة والأدب، واعتدت أن أنشر مقالة سياسية في إحدى الصحف اليومية.

كان الدكتور عطاالله يشرح قصته بتلقائية وبهدوء، لحيته تهتز مع كل جملة يقولها، يتسم برسم ابتسامة فوق وجهه، ينفي الأخبار أو يستنكر أمرًا ما والابتسامة لا تفارق مبسمه.

يقول الشيخ: تعرفت خلال دراستي في بريطانيا إلى عدة أصدقاء، كنا مجموعة من الطلاب الذين ابتعثتهم الحكومة للدراسة، جُلّ اهتمامنا كان أن ننهي الفصول بدون أن نضطر لإعادة أي من المواد، كان محمد الصادق هو الأقل مهارة بيننا.

أقاطعه في هذه اللحظة.

- محمد الصادق، هل تقصد رئيس الوزراء قبل عدة سنوات؟

فيومئ الشيخ برأسه ويطلب مني أن أصمت لحين إكمال قصته.

- أجل، محمد الصادق، الطبيب الذي كان يعيد الفصل مرتين لينجح، كنا نسهر لياليَ عديدة قبل الامتحانات، وبحكم الفارق الطبقي الذي يفصلني عنه، فقد كان دائم الحذر باتجاهي، كنت أحسّ بكرهه لي وبأنه يحسدني على تفوقي ونجاحي المستمر، لقد انحدر محمد من عائلة غنية وذات عزّ وجاه وسلطة، فوالده كان

رئيس وزراء وجده كان رئيسًا للوزراء أيضاَ وخالاته في مجلس الأعيان وعماته في السلك الدبلوماسي ولا أدري فربما خدم بيته أيضًا استلموا مناصب رفيعة في الدولة.

يضحك الشيخ بصوت عالٍ ويمسك لحيته بقبضة يده، ثم يردف:

- انحدرت أنا من عائلة فقيرة، نزحت مع عائلتي بعد نكسة عام 1967، هُجّرنا من بيوتنا وأرضنا، كنا نعيش في مخيم البقعة، نعاني من البرد في فصل الشتاء ومن الحرّ في فصل الصيف، نتقي الشرور من تحت الصفيح الذي أصبح بيتنا وملاذنا، عائلة ذات نفوذ معدوم ولكن بطموح كبير بأن يكون الطبيب الأول في العائلة مفتاح لنجاح باقي الأفـــراد في العائلة، انتهيت من متطلبات الدراسة وما يزال محمد في السنة الثانية، تخرجت وعدت للأردن وما يزال محمد يراوح مكانه حتى ملّ أهله من تكرار رسوبه وطلبوا منه الرجوع للأردن.

يُقلّب الشيخ حبات المسبحة عدة مرات ثم يبلع ريقه وينظر للسماء الزرقاء التي اعتلت باحة السجن ويكمل:

- لم يُنْهِ محمد دراسته، ورجع إلى الأردن وانضمَّ إلى إحدى الجامعات الخاصة ودرس إدارة الأعمال وتخرج وأسَّس له والده شركة للاستيراد، ثم عمل بعدها في غرف التجارة، وفجأة أصبح محمد رئيسًا للغرف التجارية، ونمت شركته وبين ليلة

وضحاها صدمنا عندما تسلم صديقنا مديرًا عامًا لإحدى المؤسسات الحكومية، ثم قفز محمد الخارق ليصبح وزيرًا للصناعة، يحدث هذا في بلد المعجزات، في زمن البله والتخبط والذي يعين فيه الشخص وزيرًا على جلسة سُكر أو من خلال نفوذ عائلته أو لعلاقاته الشخصية.

يصمت الشيخ قليلًا، تتلألأ في عينيه بعض الدموع، يحوقل بصوته الأجش ثم يكمل:

- قابلته مرتين قبل أن تنقلب الدنيا ونسمع بالخبر الذي غطّ على قلوبنا بأنه أصبح رئيسًا للوزراء، كيف له أن يتسلم موقعًا بهذه الحساسية والخطورة، لكن كما تعلم فالأردن بلد المفاجآت والسلطات التي تنتقل بالوراثة من الجد ثم إلى الابن ثم إلى ابن الابن، وبدا من سياساته المتخبطة أنه غير واعٍ لما يفعله، وبالرغم من الانتقادات المتعددة للحكومة إلا أنّها غدت ضعيفة وهشّة وغير قادرة على إدارة شؤون البلاد، وبغضون أقل من عام ازدادت المديونية وعم الفقر والغلاء والبطالة، لقد كنت متابعًا جيدًا لما يحدث، وعن طريق مقال أسبوعي يتيم كنت أعبّر عما يجول بذهني.

- في معظم المقالات كنت أنتقد سياسة الحكومة وأطلب من الرئيس الاستقالة، وبحكم علاقتي الشخصية به فقد تأملت منه

الإصغاء إلى النُصح وأن يتم استدعائي للحديث معه، ولكن لم يحصل شيءٌ من ذلك، واستمر الرئيس بأفعاله المشينة وتخبطه وازدادت حدة مقالاتي، وفي يوم من الأيام وأثناء خروجي من العيادة اعترضت طريقي سيارة أخرى، وافتعل السائق ومن معه بالسيارة مشكلة معي أُدخلت على إثرها المستشفى، فقد قام أربعة أشخاص بضربي بشكل مبرح وعرفت أنّها رسالة من الرئيس بأن أكفّ عن المشاغبة.

- مرّت الأيام وفي خاطري هذا الظلم، تعقدت الأمور لديّ وأصبحت مصيرية، هجرت عيادتي، واشتغلت بالعمل السياسي وبدل أن أكتب مقالة بالأسبوع صرت أكتب بشكل شبه يومي وأصبحت المقاهي السياسية بيتي، كانت مقالاتي تُركّز على الفساد الذي استشرى في البلاد، واستدعيت بعدها أكثر من مرة للتحقيق معي لكن لم يتم إيقافي إلا في المسيرة الحاشدة التي قدتها والتي أطلقنا بها عددًا من الشعارات التي تنادي بتغيير رئيس الوزراء والحكومة والعدول عن عدد من القوانين وفسخ معاهدة وادي عربة.

- في المحاكمة كنت متأكد أنَّ القاضي سيحكمني بضع سنوات فقط، لكنني صعقت عندما عرفت التهمة، فقد تمَّ تجميع الأدلة وفبركتها بالكامل ضدي، حينها فقط أدركت أنني في خطر وأن المخطط لهذا كله هو محمد الصادق شخصيًا.

الدقيقة الثالثة

يرتبط السجن بفلسفة بسيطة وهي فلسفة الصبر، وتكتيك متوازن لقتل الوقت، إذا لم تكن مقاتلًا فذًّا سيقتلك الوقت، ينجح عادة العديد من السجناء في ذلك، ويشترط أن تفرغ رأسك من الحساب للوقت، وأن يرتبط تفكيرك بحماية نفسك من بقية المساجين وضمان الحصول على كمية مناسبة من الطعام، والتقرب من السجانين الذين سيؤمنون لك الكثير من الممنوعات.

لم يقتنع آمر السجن مع كلّ توسلاتي لجلب آلة العود خاصتي، كانت أصابعي تتحرك بطريقة تلقائية عند الحنين للموسيقى، أدندن بصوت خـــافت وأعـــزف على آلة وهمية لا أوتار لها ولا صوت، أحسست أن لعبة الثقل التي حدثني عنها الدكتور عطاالله قد بدأت معي بالفعـــل، كنت مفرغًا من جميع اللـــذات التي تعودت عليها، السجائر التي يتم تهريبها عن طريق السجانين وتداولها وتسريبها بين المساجين بطريقة سرية كانت أسعارها تضاهي أسعار اللحوم البلدية وتتغير أسعارها من يوم لآخر، أما الكحول فقد كان الحديث عنها كالحديث عن ندرة الأحجار الكريمة، وإذا توفرت فهي من النوع

الرخيص الذي يُسبب آلامًا في المعدة وصداعًا في الرأس. الشيء الوحيد الذي سمحوا لي به هو القراءة.

غدت الأيام في السجن متشابهة، في البداية كنت أعد الأيام وأفرق بينها وبعد ذلك خملت الساعة البيولوجية في داخلي وتفسخ الوقت وأصبحت الأيام كحبات قمح متشابهة، الشيء الوحيد الذي تميزه في السجن هو حلول الظلام أو انبلاج النهار، كانت زاهية تزورني بشكل مستمر طوال الأيام المسموحة للزيارات، نجلس لمدة قصيرة لتغادرني وليغادر معها الأمل ويحل محله الألم.

معظم المساجين يرمقوني بنظرة استعلاء، هكذا كنت أحسهم مع أن الطبيب أخبرني أنها من الطباع التي يمليها عليك المكوث في السجن، أن يكون طبعك حادًا وعدم تقبل المساجين الجدد بسهولة، كانت فترة الغداء من أصعب اللحظات التي تمر علي، في الأوقات الأخرى ينشغل الجميع بتأدية ما أوكل إليهم، يتجمع المساجين في المطعم الكبير الذي يضم عدة طاولات متلاصقة، يوزع الطعام بكميات متساوية للجميع، يتراشق المساجين ببعض الشتائم فيما بينهم، أحيانا يكون الخـــلاف على سيجـــارة أو على صور إباحية تمَّ تهريبها.

السجنُ مجرد مكان يحرسه الجنود وتحفّه الأسلاك الشائكة والقضبان، السجن الحقيقي هنا هو الوقت الذي يحبس أنفاسك،

الذي يحيل يومك إلى سنوات ضوئية تبعدك عن فلك الأرض، تسوقك كدابة خرساء بكماء إلى فراغ لا يحتمل، فتدهش وتفقد قدرتك على الكلام أو التذوق أو حتى الشم، إنه قيد فيزيائي يشحذ دمك نحو اللامعقول ويشد أعصابك نحو الهاوية، ففي كل ثانية يقفز (بنادول) الوقت ليهرش جسدك ويعيدك إلى نقطة الصفر، وعندما تصعد درج الثانية تكون قد هرمت وغدا دمك وحلًا يتمرغ فيه حيوان أبله لا يهمه إلا أن يتخلص من أدرانه.

لون جدران السجن داكن، يبدو أنه مضى مدة طويلة على طلائها، تبدو الأوساخ مختلطة مع ما خطه المساجين عليها كلوحة فنية فاشلة، تنتشر رائحة عفونة من زوايا الغرف التي كبلت أبوابها بأقفال غليظة، تلك كانت سمة تتشابه فيها مهاجع المساجين جميعها، يربط بين الغرف ممر طويل غير مضاء، وتتوزع كاميرات المراقبة على الجوانب منه.

تعرفت في السجن على شخصيات عديدة وغريبة، كل سجين لديه حكاية يرويها عن نفسه، قد تضطر أحيانا إلى الصمت طويلًا قبل أن تقاطع أحدهم وهو يسرد قصته، العديد من المساجين يرمقون السارد بغرابة كأنّها المرة الأولى التي يسمعون بها قصته. كانوا في بعض الأحيان يفرحون بحادثة ما فيعم الهرج والتصفيق، وفي بعض الأحيان يسود الصمت والحزن خاصة إذا كانت قصة السجين تتعلق بموت أو فراق ما.

أبو النمر، أحد المساجين الذين يدعونك للضحك، لم أره في يوم من الأيام بدون ابتسامته المعهودة، كان يصافحك بطريقة محبّبة، ثم يقول لك: أما سمعت عن آخر نكته، كان يقول في كل مرة نكتة جديدة، لا تخلو من القصص المازحة والساخرة، يجتمع المساجين من حوله كلَّما أطلق نكتة جديدة وما تلبث ضحكاتهم أن تملأ جنبات المهاجع والممرات.

في أحد الأيام، التقيت أبو النمر في باحة السجن، كان عابس الوجه لا ينطق ببنت شفة، استغربت منه هذا العبوس وسألته عن سبب تجهمه، لكنه لم يجِبْ، كان حزينًا لدرجة تمنعه عن الكلام، عرفت بعدها من أحد المساجين أنه قد سمع للتو عن خبر وفاة ابنه النمر في جبهة القتال.

في ذلك المساء، لم أستطع نسيان وجه أبو النمر وهو عابس، فسألتُ الدكتور عطالله عنه فسرد لي قصته، قال إنه كان من أثرياء عمان، وأنه من أوائل التجار الذين تحولوا إلى صناعة الحلويات، مضت الأيام وازدهرت تجارته وافتتح عدة فروع في عمان وباقي أنحاء المملكة، وبعدها قرَّر أن يفتتح أحد المتاجر الكبيرة ولاقى نجاهًا باهرًا، الأمر الذي دعاه للتوسع ليصبح لديه خمسة متاجر تقدر أصولها بالملايين.

الابن الأكبر لديه كان من الشباب الذين تخرجوا في الجامعة بتفوق، دعاه أبوه ليدير متاجره التي انتشرت في عمّان وإربد لكنه

رفض، كان نمر قد بدأ بإطلاق لحيته وارتياد المسجد منذ أن دخل الثانوية العامة، عندما أنهى الجامعة كان إمامًا في المسجد المحاذي لبيتهم ويحفظ القرآن غيبًا، حاول أبوه أن يغريه بكافة الوسائل كي يشرف على تجارته لكن نمر اختفى في ليلة واحدة وغابت أخباره إلى أن أبلغ الأمن أبو النمر أنه هاجر إلى الشام للقتال مع فرق داعش، أصيب أبو النمر بصدمة عصبية وحاول الاتصال بابنه عن طريق عدة قنوات رسمية وغير رسمية لكنه باء بالفشل، كان مُنشغلًا طوال الوقت بتتبع أخبار ابنه الذي لا يعرف عنه إلا الجبهة التي ينتمي إليها.

ساءت أحوال أبو النمر بعد أن تركه ابنه وترك له قصة مبهمة مع الدوائر الأمنية الذين حققوا معه أكثر من مرة، بل وتم التحقيق مع كل أفراد عائلته، كان أصغرهم ابنه محي الدين، وفي أثناء التحقيق معه، اعترف محي الدين أنه قد تم تنظيمه قبل عامين مع أخيه للانضمام إلى جبهة إسلامية في سوريا وأنه كان ينوي المغادرة مع أخيه لولا استباق الأخير لهذا الأمر.

أصيب بعدها أبو النمر بانهيار عصبي جعله يترك الإشراف على أعماله التي تراجعت وباء الكثير منها بالفشل والإغلاق، بل أن العديد من الدائنين قد حجزوا على ممتلكاته بأمر قضائي وبات الرجل في وضع لا يحسد عليه، وفي محاولة له من الخروج من هذا الوضع فقد تبرَّأ من ابنه نمر الأمر الذي صعد خلافًا كبيرا بينه وبين زوجته. كان

الرجل يفقد عقله كل يوم، تحولت حياته إلى جحيم وبات يضرب زوجته كلما ذكرت قصة ابنه النمر إلى اليوم الذي وجدت قتيلة في بيتها بعشر رصاصات من مسدس أبو النمر.

أنكر أبو النمر التهمة، لكن الأدلة كلها أشارت إليه، خاصة أن كل إخوتها وجيرانها قد شهدوا بالضرب المتكرر لها وتهديده الدائم لها بالقتل. أدين بتهمة القتل وحكم عليه بالمؤبد، منذ عرفناه وهو إنسان عطوف على الجميع، تميز بالحس الساخر وقوله للقصص المضحكة وكأن شيئًا لم يكن، كأنه رضي بحياة السجن عن الحياة في الخارج، يقول دائمًا أن السجن عالم صغير تتعرف على قاطنيه فيستطيع عقلك استيعابهم بعكس العالم الخارجي الذي يكتظ بخلق كثير.

كنت وخلال تفقدي للمساجين، أرى شبهًا كبيرًا بين شخوص أحلامي وبينهم، شبهًا يحيل حياتي اليومية إلى تكرار لذات الحلم، أنظر للوجوه الشاحبة التي هدتها قسوة السجن، حفظت الوجوه عن ظهر قلب، عرفت أنَّ أضغاث أحلامي ما هي إلا ترجمة للواقع المُرّ الذي أعيشه وترجمة للطاقات السلبية التي تنتشر بين أروقة السجن، حيث لا ملاذ من البؤس بين الردهات وأقبية السجن، طاقة بلون رمادي قاتم تلون يومك وتزيد حياتك قنوطًا ويأسًا.

السجن مملكة، يحكمها السجانون الأقوياء الذين استولوا على السلطة عنوة، يزخر السجن أيضًا بخدم السلطة الذين ينفذون الأوامر

ويوزعون الأدوار ويتابعون أمور جمع الغنائم من المساجين الضعفاء، وهنالك الطبقة العامة التي تكدح ليل نهار وتدفع الإتاوات لحاشية السلطة، هكذا هي مملكة السجن، متنوعة بسياسات وأحكام وأعراف يعرفها الجميع، لا تخرق ولا يستطيع المساجين تغييرها بسهولة، فإن حصل خرق أو مخالفة من أحدهم يتمّ بعدها تصفية الحساب معه بهدوء وضمن خطط محكمة.

كان (أحمد الكوع)، كما كان يحلو للمساجين تسميته يعتبر فتوة السجن، أحمد رجل جهم ومفتول العضلات، يتميز جسمه بالطولِ المبالغ فيه، والكتفَين اللذَين يرتفعان بغير انتظام، أما وجهه فيميل شكله إلى الدائرة التي تنتهي بشعر كثّ مجعّد لا يمشط ويتدلى إلى نهاية الكتفين، وشاربان يمتدان فوق فم مستطيل.

أدخل الكوع السجن بتهم متعددة كان أقلها القتل والاغتصاب، كانت عيناه تفترشان جحرين أُطرا بشعر كثيف على الحاجبين، يتسعا بشكل ينبئ أن الكوع متهيِّئ للقتل في أي لحظة، لفت نظري في باحة السجن أن الكوع يحاط دائمًا بخمسة رجال أشداء لا يفارقونه.

الكوع رجل لا يعرف الرحمة ويفرض (إتاوات) على كافة المساجين، عندما أخبرت عطوة بالأمر، حذرني من ضرورة البقاء بعيدًا عنه، وعندما أخبرته عن أمر (الإتاوات)، طمأنني بعدم الاكتراث بذلك وأنه سيطلب من الكوع استثنائي من ذلك.

- الكوع يحتاجني كثيرًا، أسئلته الطبية لا تنتهي وكلمتي لا تصبح اثنتين عنده.

قال الطبيب وقد تغيرت لهجته، بدا عليه الاطمئنان وهو ينظر إلى الجهة التي جلس بها الكوع ورجاله.

حَمدت الله بأن يسَّر لي سندًا كالطبيب ليرد عني كيد أمثال الكوع، فأنا وبرغم تعودي السريع على بعض المساجين إلا أنني لم أستطع الاقتراب من الكثير منهم خاصة من أولئك الذين حكموا بتهم بشعة كالكوع.

أحسّ بحرارة في رأسي وبوجع يلف رأسي، في الصباح حدثت الشيخ عن الألم، قلت له إنَّ الألم يسبب لي كوابيس لا تنتهي، وإن ذاكرتي غدت كغربال لا يحفظ حبات الحنطة، ضحك حينها الشيخ وتلمس رأسي، وضغط بشدة مقدمته، ثم نصحني يومها أن أراجع طبيب السجن.

الدقيقة الثانية

يتهادى الألم ببطء ويختلط بكريات دمي الحمراء، أشعر بقلبي يتخبط وسط المحاليل التي تدفقت داخل أوردتي المُعطّلة، يحدث أن يتوقف لدقيقة ليعاود الوجيب كطاحونة هواء هجرتها الريح، قوة مستترة هي التي تتحكم بروحي وجسدي، قوة مُتقدة لا تحتاج إلى طاقة لتنشط أو وقود لتتحرك، قوة الروح المرتعشة قبل الانسلاخ عن الجسد.

الروح، تلك التي لم يعرف أحد كنهها، هي بالأصل قوة الطبيعة التي تنزل المطر وتُحرك الغيم، الروح طاقة كونية تتكون من أطياف استمدت قوتها من زرقة السماء، ومن هدير الشلال ومن غناء العصافير، هي الرعشة الأولى لفتاة لم تعرف طعم القبلة، والعبرة التي تصيب أمًّا فقدت ابنها في الحرب، هي الغضب الذي يصيب كريم نفس عند الحاجة لأحد الأنذال، هي الحياة برمتها وبهائها وفقدها من الجسد لا يعني انتهاءَها بل تحررها من الرسن الذي يربطها ويقيدها.

الغرفة الضيقة تعجّ بأجهزة طبية تشير بدقة إلى نبضات قلبي ورضوخ دماغي، وهنالك أيضًا أنابيب طويلة تخترق جسدي من كلّ

ناحية لتبقيه يقظًا، يفترش فمي أيضًا صدأ حديدي ينتشر ليسد حلقي بطعم مالح، ينتفخ على إثر ذلك بطني بشكل دائري، أشتاق إلى الطعام، عندما كانت تحضره أمّي، نجتمع على الطاولة ونقرأ دعاءً لشكر الله على نعمه، كنت حينها أتمتم بشفتي من غير أن أنطق بكلمة، أمثّل دور الطفل المطيع لأبيه الذي لا يقبل عذرًا ولا يستمع لكلام غيره. ليتني أعود يا أبي طفلًا، كنت سأطيعك وأتلو الدعاء بصوت عالٍ، ليتني يا أمي أجد صدرك الحنون، ذلك الصدر الذي سقط رأسي عليه كثيرًا للبكاء، ليتني أعود!

يتحول الألم إلى لذة، يقتاتها الموجوع على معدة خاوية، يقترن الجوع بشعور حيواني بأن الكون هامد وغير قادر على مكافأتك بشكل سخي، شعور يعرفه المرضى الذين لا يحبّون مشاركة آلامهم للآخرين.

الشهقة الأولى تزيد من نبض القلب، تستنفد الهواء في الرئتين، تطوف بتعاريج الشرايين المتقاطعة لتزيد التركيز في أعلى الرأس، تحديدًا منطقة الجبين، حيث تبدأ نمنمة متسارعة تغشي النظر لوهلة ثمَّ تعيد إليك نفسك الذي كاد أن يقتلك انقطاعه.

في رحلة تمتدّ لدقائق معدودة يسلم العقل مفاتيحه، يرتخي كأنَّه رهين حرب، فهو مثقل بأوزان لا يعيها ومسلوب لأمر لا يدرك كنهه. يعتصر وتزداد حساسيته، طرق خفيف قد يجلب الانتباه، وجريان للدماء قد يحسّ كشلال فائض من فوق جبل على أرض جرداء.

أطياف وظلال تظهر لومضات ثم تختفي.

هنا، تبرز حدة الألوان، فالأصفر يبدو متهدلًا فوق بعضه ويسيح بارتخاء لا يستحب، أما الأحمر فيلتهب في وميضه ولسعاته، ويتقد ليغدو شعلات تضيء، الأزرق دائمًا يتحلَّل إلى الأبيض ويتلاشى كلّما أوغلت في النظر إليه، بعكس الأخضر الذي يجذب اللون البني ليتَّحدا في لجّة غامقة تنتهي بليل بهيم.

في غفلة الألوان أرى قطعانًا من الغزلان تطير فوق السحاب وتبتسم، نعم، كانت تبتسم وتشيح بنظرها خجلًا كعرائس في يوم زفافها. تفترش السماء أيضًا ثعالب واسعة العيون، بفراء ناعم يستطيل مع هبات الريح فتراها كأمواج بحر وقت الغروب، برتقالية اللون ومزدانة ببقع بيضاء وسوداء.

كنت أحلّق غير مدرك للقوة التي أعطيت لي، ليس لديَّ أجنحة ولا محرك دفع نفاث، لكنني كنت أتجوّل في السماء كأنها مسرحي الخاص، أجلب الريح من فوقي لترفعني باتجاه مركز السماء، جسدي يشتعل بطاقة لا حدود لها.

غدت الكوابيس تتكرَّر كلَّما مرَّ يوم جديد في السجن، كوابيس متنوعة لا تنتهي، كانت حالة الحلم موجعة، مقلقة وتجتث حالة الطمأنينة من جذروها، ألهث وأتذكر الدخان الذي يُتعب رئتَيَّ، قد يتوقف إيقاع الحلم بين النوم والصحو، تلك المنطقة التي أحاول إقناع

نفسي بها بتغيير مجريات الحلم، أتخبَّط لأصحو لكن يدًا خفية تدفعني لإكمال الحلم بصوره المتشققة.

يدٌ أعرفها وأعرف صاحبها، يظهر من بين غمام الحلم، يرتدي هذه المرة جبة وعمامة، يبتسم لي، ثم يعترف بالقسوة التي حاقت بي في المدة الأخيرة، يرفع هارون حاجبَيه ويطلب مني أن أستعين بالصبر والصلاة، يكررها عدة مرات، ما الذي تنتظره؟ يقول لي ولا أستطيع الإجابة، يردف: وحده الصبر من يفتن الوقت، اللغز الذي أنقذ حياتي، هل أُحدثك عن الألم الذي سببته لي، أن ترى عائلتك تحترق من أمامك، هل زاد حجم قرائِك أيها المبدع، هل استمتعوا كما قلت، هل انتشى قلبك من رائحة اللحم المحترق، ها أنت؟ تقف في قفص من حديد، وألم لا يبارح رأسك، أرى هذا الألم من حيث أقف، يبتزك ويحيلك إلى شخص ضعيف، يلوح هارون بسيفه فأصحو فزعًا.

الذاكرة محض بصمة في كامل جسدنا، نلمسها عند حدوث الفعل وننساها عند مرور الوقت، هي مخبَّأة في الروح ذاتها، ملتصقة بماهية محتجبة، تتيه في دواخلنا، لا نملك سيطرة عليها، نحفّها، نضغط على عقولنا، فتعتذر منّا ودائما ننسى.

صرت أنسى العديد من الأسماء، أهيم بين مهاجع السجناء بحثًا عن غرفتي، ينتابني صداع وخمول يهدّ جسدي، نوبات من القيء تحطم ما تبقى من جسدي المتعب، يقتادني الشيخ عطاالله ويجلسني

فوق أحد الكراسي، يفحصني بعناية، حرارتي مرتفعة، نبضات قلبي تتسارع، رعشة في يديَّ وبرودة في باقي الأوصال، ينادي الشيخ على الضابط المناوب فيهرول باتجاهنا مجموعة من الحراس.

- الرجل حرارته مرتفعة ولديه أعراض خطيرة، يلزم نقله للمستشفى حالًا. يقول الشيخ بصوت أقرب إلى الهمس.

يقترب الضابط منّي، يضع يده فوق رأسي، ليدرك أنَّ الموضوع جدي، ثم يأمر باقي الحراس بنقلي إلى عيادة السجن لمعاينتي من قبل الطبيب، يمسكني الطبيب من يدي، يفحصني بعناية ثم يُقرر نقلي إلى المستشفى العسكري.

لأول مرة منذ دخولي للسجن سأحتفي بالسماء الزرقاء بعيدًا عن جدران السجن، سأحتفي بها بكامل مرضي الذي لم أختره، المرض الذي تفشى في جسدي ونهب خيراته، يرافقني أحد رجال الأمن الذي بدا متعاطفًا معي، يعاونني على الصعود إلى سيارة الإسعاف التي احتوت على أجهزة عديدة، أرقد مُراقبًا صوت المارة في الشوارع، تنتابني برودة تجبرني على إغماض عينَيّ، أرتجف من البرد، يرتعد جسدي وأغيب عن الوعي.

الدقيقة صفر

في مرحلة الخفة، تعرف أنك ستموت، يحزّ قلبك سيف الوقت الحاد الذي يفصل روحك عن تلابيب جسدك، مرحلة نزع لالتصاق دام عقودًا عديدة، تنتشر بسببه رائحة تشبه رائحة احتراق أسلاك في جهاز كهربائي، هي هكذا تمامًا، رائحة مزعجة لا تعرف مصدرها، لكنها تعشش في دهاليز حـــاسة الشم لديك، تلك تمامًا هي رائحة الموت.

هل أنا ميت؟

لا أعلم، لكن إحساسي برؤية الأشياء بدأ يتضاءل شيئًا فشيئًا، خدر لذيذ يشتد بجسدي، أطرافي غدت خفيفة وروحي تتحرر، الضوء يخفت أيضًا لتصبح الغرفة ظلامًا دامسًا، يشتد الخدر أكثر وأغيب.

يهرع مجموعة من الممرضين والأطباء، يتساعد الجميع في الضغط على صدري، يسعفون القلب الذي تاهت نبضاته، أراه يسلم راياته ببطء، تحتشد داخل جوفي غيمة من النفس الذي بدأ بالوجيب، أحدهم يناديني بصوت عال، يأمرني أن أقاوم، يضربني بمطرقة من

حديد وكهرباء تنفض صدري فيرتج جسدي ولا يستجيب، يتضاءل النفس، يخفت لتحل محله إضاءة ساطعة، نفق يمتد لضوء باهر، جسدي خفيف، تطير الروح عصفورًا، تعلو فوق جسد منهك هدته إبر الأطباء وسلبت منه البريق.

تنتفض روحي، أحسّ بالثقل مرة أخرى ثم تحلق قريبة من حافلة بيضاء تمشي ببطء، تمتزج روحي بجسد جفّ منه الدم، مسجّى داخل الحافلة وملفوف بقماش أبيض.

بهمس وبدون ضوضاء، تطل الحافلة على مقبرة مهيبة تحتل بطن الوادي.

خلفها يعدو رتل من السيارات بحزن مصطنع، حافلة الموت بيضاء من النوع القديم، مسطحة من مقدمتها، ويعلوها ضوء دائري أحمر اللون. لمَ يضعون ضوءًا لا يستخدم قط؟

كانت الشواهد تعـــــلو القبور، تتسلــق بعض النباتات البرية الأضرحة، تتنافس على مساحات التراب المتبقية فوق الحواف، أرجل عديدة تدوس النباتات وتهرسها لكنها تتجنب الاقتراب من الشواهد وحدود القبور، الشواهد تعطي القبر هيبة، من لم يكن له شاهدٌ على قبره فلا هيبة له، ستدوس الأقدام قبره غير عابئة بثقل الخطوات فوق الأتربة المُحتشدة فوق صدره.

بعض الشواهد كُسرت بفعل فاعل، وتشوهت الأسماء واختلطت أحرفها، لقد تسلل بعض اللصوص لسرقة الرخام الذي يعلو القبور، لصوص رخيصون وجدوا أنَّ أسهل طريق للسرقة هي سرقة شواهد قبور الأموات، فلن يخرج ميتٌ للشكوى ولن يدافع أحد منهم عن قبره. بعض القبور نبشت أيضًا، لا بدَّ أنَّ من حفر قبرًا بعمق عدة أمتار كان طامحًا لشيء غير العظام ورفات الأموات.

الحافلة الكسولة تتمطى لتصل قريبًا من فوهة القبر الفاغر فاه لالتهام جثتي ويبدو على الذين ترجلوا منها الحزن، لم يغرني عدد الذين شهدوا الجنازة، ولم آبه لتفاصيل المنظر، فها هو ذات المشهد يتكرر:

هدوء أمام السيارة البيضاء التي تحمل جثتي، هل هو الخوف من لحظة مماثلة؟

أجزم أنّ الجميع يحدث نفسه بشعور الميت. ولا يعرفون أنَّ الخفة هي الشعور الذي يسيطر عليه.

تقترب الحافلة من المقبرة، صوت قارئ شجي ينبعث من مذياعها، يجوّد بآية: (واذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت) وكلما أعادها الشيخ يخفض المجتمعون رؤوسهم.

تختلط الرؤية وتثقل روحي فألتصق بالجسد، الوقت يصبح حينها كائنات دبقة تمتص دمي، لا يسير الوقت بل يتكور، يحتشد

فوق صدري فتدلق الكائنات لزوجتها المتعفنة ويمتهن الوقت الموقف ويتوقف.

حالات نادرة هي التي يتوقف بها وقتي هكذا، فهي حالة رديئة إن جاز وصفي لها، يتوقف الوقت لكن الفعل لا يتوقف، الفعل الصعب وتزداد صعوبته كلَّما اقترب الزمن ليصبح صفرًا، يتعجن ويختمر وتفوح منه رائحة نتنة.

يرنو صمت بعدها ويفتح باب الحافلة الخلفي.

يتطوعُ اثنان ويتقدمان الجمع ليحملاني، جسدي مغطى بكفن أبيض يكشف عن وجهي وجزء من صدري، كفن يزيد من البرودة التي أمضيت ليلة بكاملها أقاسي مراراتها.

لم كل المدعوين من فئة الرجال؟ ولماذا لا تتم دعوة النساء إلى المقبرة؟ أتساءل في داخلي ولا أحد يجيبني.

تضيق المقبرة تارة بالصمت وتتسع تارة أخرى بهمس لا يكاد يُسمع، وكلَّما اقترب المجتمعون من الفوهة التي تنتظر نعشي يزيد الصمت، تتدلى جثتي في الحفرة المظلمة، حفرة صممت لتأوي جسدًا واحدًا فقط، بدون شبابيك أو إضاءة أو مصعد كهربائي، حفرة يزينها التراب فقط وتعجّ بها رائحة الطين الذي خلط لتمكين الطوب حول الجسد، حفرة ستلتهم الجسد وتذيبه على مهل، فلِمَ العجلة، فالجسد لن يغادر هذا المكان أبدًا.

يختلف من اجتمع فوق القبر على وضعية الجثة، وأن يكون اليمين موضعًا أبديًّا لها.

يمتعض أحدهم، يزفر آخر، ثم يصيح غريب من بين الجموع: وحّدوا الله! فينطلق الجميع بصوت صاخب: لا إله إلا الله. وينتهي نعشي في القبر وحيدًا مُسدلًا.

من هذا الشخص الذي أنقذ الموقف بكلمتين، ولمَ احتاج كلَّ هذا الوقت لينبه الجمع بأن لا يصمتوا في هذه اللحظة.

يستتر الضوء بترتيب متهادٍ وخطوط مستقيمة تنتهي بالثقب الأبيض الذي يضيء المكان، يعتريه ضمور كلَّما اقترب منه ظلَّ التراب، يترنح في بادئ الأمر، يقاوم السواد الذي يلفعه من جميع الجهات، لكن الأسود يكلّل الموقف بجفاء ويعتلي عُري الضوء الذي تتلاشى ملامحه ثم يختفي، أين يذهب كل هذا الوهج في جوف الظلمة المدلهمة، وكيف تتعربش من فوق كتفيه وتطرح عنه بهجته التي يتغنَّى بها طوال الوقت.

يختلط الشهيق بالزفير ثم يغيب النفس، تلك العملية الدنيوية التي كنت أحتاج بها إلى الأكسجين لأحيا لم يعد لها أي نفع هنا، النفس ذاته يختفي ويحل محله حالةٌ من الهدوء البرزخي بتوقف الزمن وعدم تغير الأشياء، تصبح الأشياء ذات طابع صفري، تتجمد ولا تتمدد، فلا أنت معني بالنمو ولا حدوث أي تغير يذكر.

يتسامى الوقت ويصير رذاذًا تراه بقلبك وليس بعينيك، وعي يمتد ويكبر كلما ازداد الظلام، تتسارع حركتك وتنسلخ من الكفن الذي علته الأتربة، لا تنمو لك جناحان لتطير بل تكون خفيفًا متسربلًا بشفافية الأثير، تستطيع المشاهدة من جديد، الرؤية واضحة، يجتاحك وهج مشع، تستطيع القفز، بل والتحليق عاليًا، أنا في حلة جديدة، أراني اتنشق عطر الرياحين، أتنزه بين الورود، أعانق الغيم وأقتنص فرصة مرور سرب حمام لأطير بجانبه، روحي كنسمة تتناغم مع الطبيعة بشكل سهل.

أنهب السماء قفزًا ثم طيرانًا، أسابق الضوء فأمتزج معه لنصبح شهابًا رَصدًا، هنا فقط أدرك أَنَّني تخلَّصت من حملي الذي أثقلني ووصلت للزمن صفر.

أحرك يدي فتتحرك، قلبي ينبض، أحسّ بدم يسري في الشرايين بشدة، يلتفّ ليصل إلى دماغي، أشهق وأصرخ بالجميع: كفّوا عن هذا!

يرتد البصر لي، أحسّ بمرارة في الحلق وببرودة الطقس في الخارج.

تسقط جملتي على رؤوس المجتمعين مثل قنبلة نثرت هولها، تتسع حدقات عيونهم فوق رأسي الذي بدا لهم كرأس طلع شيطاني، بعضهم ابتعد عن القبر غير مصدق لما يراه، البعض الآخر فتح فمه لا يقوى على قول شيء، تحركت الجموع، اضطربت حتى تجرأ أحدهم ونزل

حيث يتمدد جسدي، مسَّد فوق رأسي فرمقته بنظرة ثم قلت له: فكَّ عني هذا القماط.

- إنّه حي، لقد عاد إلى الحياة.

صرخ الرجل بأعلى صوته المتهدج، فكَّ وثاقي، قمت من القبر، تبرع أحدهم وغطاني بعباءة طويلة تتصاعد منها رائحة عرق ودخان، كنت أبتسم للوجوه التي أخذت تطالعني من جميع الجهات، تجمع الناس من حولي، كانوا ينظرون إلي كأني كائن فضائي حط بمركبته في المقبرة. كان البعض يلتقط صورًا لي من خلال هاتفه المحمول والبعض الآخر يلمس جسدي.

نظرت إلى السماء، كانت تتشكل كأنها لوحة فنية مرسومة بإتقان، تحتشد في تجاعيدها بعض الغيوم التي تجانست مع اللون الأزرق فصبغته بلون أقرب إلى الرمادي، وفي نهاية اللوحة كان يظهر ذات الثقب الأبيض باعثًا ضوءًا جليًا، منبئاَ هذه المرة بأن "على هذه الأرض ما يستحق الحياة"[1].

(1) مقطع من قصيدة للشاعر الفلسطيني محمود درويش.

السيرة الذاتية

د. نائل العدوان

- قاص وروائي أردني وفنان تشكيلي من مواليد 1974.
- يحمل درجة الدكتوراه في اقتصاد الأعمال - الاتصالات من الجامعة الأردنية، ويعمل حاليًا كمدير لمديرية الاستثمار والترويج في وزارة الاتصالات وتكنولوجيا المعلومات.
- حائز على الجائزة الأولى للقصة القصيرة لرابطة الكتاب الأردنيين عام 1996 والجائزة الأولى للقصة القصيرة للجامعات الأردنية بنفس العام.
- عضو رابطة الكتاب الأردنيين ورابطة الفنانين التشكيليين.
- له مجموعة قصصية بعنوان المرفأ، عام 2013، ورواية بعنوان مذكرات من تحت بيت الدرج 2014، وديوان شعري بعنوان نكاية بالشعراء 2015، ورواية بعنوان غواية لا تود الحديث عنها في بالعام 2016. وجميع مؤلفاته صدرت عن دار فضاءات للنشر.

✉ naeladwan@gmail.com

nael.adwan.3

@naeladwan